فن المقالة

تأليف

الدكتور محمد يوسف نجم

الجامعة الاميركية - بيروت

الطبعة الرابعة

١٩٦٦

دار الثقافة

بيروت - لبنان



مقدمة الطبعة الرابعة

تصدر الطبعة الرابعة من هـذا الكتاب ، على كره مني . فقد كنت أتمنى ان تتاح لي اعادة النظر فيه ، بعد ان مضى على طبعته الاولى زهاء تسع سنوات . وكم كنت أودّ ان أرى لزملائي من الباحثين ، في الجامعة وخارجها ، دراسات تسند هذه الدراسة وتضيف عليهـا ، وتوسع بعض جوانبها . على ان ذلك لم يحدث لا في بلادنا العربية ، ولا في الخارج . ولعـلّ انصراف النقد العربي عن هـذا الموضوع هو جزء من انصرافه العام عن العناية بفنون الأدب الحديثة ، من قصة وأقصوصة ومسرحية ،وايثاره الترجمة على التأليف .اما النقد الغربي فلم تصدر فيه في السنوات الأخيرة ، فيما أعلم ، دراسة بوسعها ان تصحح رأياً او تضيف جديداً . وأكثر عناية مدرسي الأدب وفنونه في الجامعات الغربية ، وخاصة الامريكية ، منصبة على قراءة النصوص وتحليلها واستخراج القيم الفنية من داخلها . يضاف على هذا كله ان المقالة لم تعد في هـذا القرن فناً من الفنون

الأدبية التي تتجلى فيها قدرة الأديب على الابداع ، اذ تحولت الى اداة سريعة في يد الصحافة ، او غدت وسيلة من وسائـــل الباحث ، يعرض فيها رأياً في موضوعه ، او يبسط نتيجة من النتائج التي توصل اليهـــا خلال دراساته ، مما لا يمتد ويتفرع ليشغل كتاباً بكامله . ولذا أصبح البحث في فن المقالة اليوم ، لا يدخل في نطاق دراسة النثر الفني ، بـــل اصبحت قواعده وشروطه ادخل في قواعد المباحث العلمية . ونحن نرى اليوم العديد من الكتب يصدر ليعـــالج وسائل الباحث الحديث ومناهجه ، والباحث هنـــا هو مؤلف الكتاب او الدراسة المطولة ، ومؤلف المقالة العلمية ايضاً على مـــا فيها من ايجاز واحتجاز . ولذا بقيت دراسة المقالة ، باعتبارها فناً أدبياً ، مقصورة على دراسة اعلامهـــا السابقين ابتداء من مونتين ، ومروراً بكتاب مقالة المجلات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومثل هـــذه الدراسات وان كانت تجلو جوانب كانت خفية في ذلك التاريخ ، او تبسط أموراً كانت موجزة فيه ، فانها لا تضيف على دراسة هذا الفن الا القليل .

محمد يوسف نجم

بيروت ١٩٦٦

القسم الأول

المحاولات المقالية قبل مونتين



١ - تمهيد

تجمع مراجع التاريخ الأدبي على أن الكاتب الفرنسي ميشيل دي مونتين ، هو رائد المقالة الحديثة في الآداب الأوروبية . ولهذا يقسم مؤرخو الأدب تاريخ المقالة الى طورين متباينين ، يقف مونتين حداً فاصلاً بينهما . والطور الاول هو الذي ظهرت فيه المحاولات المقالية في صورتها البدائية الفجة ، حين كانت تجارب مضطربة لا يحكمها ضابط ولا يحدها قانون ، وذلك قبل ان تتطور الى صورتها الحديثة حين أخذت طريقها نحو النضج والتكامل ، واتخذت لها قالباً اضحى مقرراً معروفاً فغدت فناً من فنون الأدب المعترف بها ، كالملحمة والقصيدة الغنائية والمسرحية والقصة والسيرة وما الى ذلك .

ولما كانت غايتنا في القسمين الأولين، أن نؤرخ بايجاز لتطور هذا الفن الكتابي ، رأينا ان نلم بتاريخ المحاولات البدائية التي تمت في الطور الاول ، ثم نتقدم الى تأريخ أدب المقالة ، في

طورها الحديث ، الطور المونتيني ، لكي يلمس القارىء بنفسه مدى التطور الذي لحق هذا الفن الأدبي في الطورين السابقين .

٢ – بذور المقالة في الآداب الشرقية القديمة

ظهرت بذور الادب المقالي ، بأنواعه المختلفة ، في الآداب القديمة قبـــل القرن السادس عشر ، وهذا الامر ليس مظنة الاستغراب ، فالمقالة في حقيقتها ، شأن سائر فنون الادب الاخرى ، تقوم على ملاحظة الحياة وتدبر ظواهرها وتأمـل معانيها ، وهذه ظاهرة نفسية رافقت الانسان منذ ظهوره على وجه الارض ، إذ هي مركبة في طبيعته ، بـــل هي جوهر جبلّته التي فُطر عليها . وقد عبر عنهـا منذ فجر التاريخ في تهاويــــل السحر ورسوم الكهوف ، ووجدت في أحاديثه ومسامراته قبـل عهد التدوين متنفساً ومراحاً . وأصبح من عادة هذا الانسان المتأمل فيما بعد ، أن يدوّن نتيجة تأملاته وخاطراته على صورة ساذجة تتسم بالبساطة والعفوية دون ان يشق على نفسه في خلق قالب فني محدد ، او لعله لم يكن من الفطنة والحذق بحيث يتيسر له ذلك . وهذا ما نجده في أمثال الأمم وجوامع كلمها . وللعرب حظ عظيم منها يرجع الى عهود موغلة في القـدم ، وعليهـا يعتمد الباحثون في دراسة تطورهم

العقلي ، والمرتبة التي بلغوها في تمرسهم بالحياة واختبارهم لها وتأملهم معانيها . ثم ان لها فائدة أخرى في نظر الباحثين ، فهي تختلف عن الشعر بصدورها في الاكثر عن عامة ابناء الشعب وأوشابهم ، بينما يصدر الشعر عن طبقة ترتفع بعقليتها عن مستوى العوام ، وتلتمس لفنها ألواناً من الصقل والتهذيب ، لا يأبه لها أصحاب الأمثال الذين اعتادوا ان يلقوا بها في المناسبات التي تعرض لهم ، تعبيراً ساذجاً سريعاً عن احساس فطري تلقائي . وهذا هو شأن الأمم جمعاء في أطوار بداوتها. والمثل قريب بطبيعة وضعه وصياغته من فن المقالة ، التي أراد لها مونتين ان تكون صورة صادقة عن احساسه بالحياة وتأمله لها ، لا يلحقها اي تشذيب او تصنع .

وخير صورة نقع عليها لمثل هذه الحكم الشعبية ، ما نجده في بعض اسفار العهد القديم ، وخاصة في اسفار الحكمة وهي « الامثال » و « الجامعة » و « سفر يشوع بن سيراخ » . فهذه الاسفار الثلاثة ، توضح لنا المراحل الثلاث ، التي تجتازها الملاحظات العابرة ، حتى تغدو نوعاً من الأدب المقالي . ففي المرحلة الاولى تظهر على صورة الامثال والاقوال السائرة ، وجوامع الكلم التي لا تنتظمها وحدة شاملة[١] . وفي المرحلة

---

(١) سفر الامثال : الاصحاح ١٠ - ٢٢ ، وسفر الجامعة : الاصحاح العاشر .

الثانية تستقطب هذه الامثال والاقوال الحكمية ، حول فكرة واحدة ، هي فكرة الملك والجاهل ، وهذه الفكرة الموحدة او الموضوع العام ، هي البداية الحقيقية لفكرة وضع عنوان لكل مقالة[١] . وفي المرحلة الثالثة، نجد ان هذه الامثال التي استقطبت حول فكرة واحدة ، قد اتسع نطاقها حتى شملت مجموعة من الافكار التي تنتظمها وحدة موضوعية . فأصبح المثل الموجز المركز موضوعاً عاماً يتيح للكاتب ان يجيل قلمه في حديث مسهب، وان يفيض في عرض افكاره وبسط نظراته، وهنا نقع على الصورة الموجزة للمقالة الحديثة[٢] .

ويعكس لنا الأدب الصيني القديم الذي يدور حول الموضوعات الدينية والفلسفية مثل هذه المراحل ايضاً، وخاصة في الاقوال المأثورة التي تنسب الى كونفوشيوس (حوالي ٥٠٠ ق. م) ، وكذلك في آثار تسي زي في ذلك العهد ، ثم في كتابات منشيوس (حوالي ٣٠٠ ق. م) ، أكبر اتباع كونفوشيوس ، وخاصة في تلك الفصول التي كتبها عن الحب الكوني . ثم في تعاليم لاووتس ، في أوائل القرن السابع ب.م. التي ضمنها كتابه « الطريق » .

---

(١) سفر الجامعة : من الآية التاسعة من الاصحاح الرابع حتى الآية التاسعة من الاصحاح الخامس .

(٢) سفر يشوع بن سيراخ الاصحاح الثالث ، الآية ١ - ١٦ والاصحاح الثاني عشر (باطل الأباطيل) من سفر الجامعة .

٣ – في أدب الاغريق والرومان

بيد اننا نعثر في آثار الاغريق والرومان الأدبيــة ايضاً ، على صورة متطورة لهذه المحاولات البــدائية ، حيث نقع على تباشير المقالة الحديثة على أنواعها . والأدب الاغريقي قبـل الفتح الروماني ، لا يقدم لنا الكثير ممــا نستطيع ان نعتبره نماذج ساذجة للمقالة الحديثة ، مع ما بلغه من تقدم في الفنون الادبية الاخرى كالملاحم والمآسي والمــلاهي. ولكن تلك الفترة التي تنتهي حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، كانت المعين الثر الذي استقى منـه أدباء الاغريق المتأخرون ، وكذلك أدباء الرومان ، الذين قدموا بين يدي المقالة الحديثة آثاراً فذة ، أتيح لهم ان يوفقوا الى انتاجهـا بسبب الظروف المواتية التي أحاطت بهم آنذاك. ولعل أجدرها بالذكر ، تلك الفترة الطويلة من السلم والازدهار ، وما هيأته لهم من الفراغ والدعة والطمأنينة ، وما شملهم فيها مــا رعاية اولي الأمر وحدبهم وتقديرهم .

وهذا لا ينفي ان تباشير المقالة قـد ظهرت في آثار بعض كتّاب الاغريق أمثال فيثاغورس وهيرودوتس وثيوكيديدس

واكزينوفون وديموستنيس وابيقور وبوليبيوس وديونيزيوس ولوسيان ولونجينوس واثينايوس وسواهم ، ممن عاشوا في الفترة التي امتدت من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعده .

كما ان أساليب بعض الفلاسفة والكتّاب امثال سقراط وافلاطون وأرسطوطاليس وثيوفراستوس وفلوطارخوس ، كانت ذات أثر مباشر في أساليب بعض انواع المقالة الحديثة. فأسلوب الحوار ظهر مشرقاً بارعاً في آثار سقراط وافلاطون وارسطوطاليس . وقد امتاز افلاطون فضلاً عن ذلك، بالحرية في التعبير والانطلاق في الحديث ، وهاتان الميزتان ظهرتا فيما بعد بجلاء في مقالات مونتين رائد المقالة الحديثة . كما ان كتابات ارسطوطاليس التي تميزت بالتركيز والشمول ودقة المنطق ، كانت ذات أثر بالغ في مقالات باكون . زد على ذلك انه قدم لنا اول مقالة نقدية تمتاز بعمق في التفكير ودقة في التحليل ، وذلك في فصل المأساة من « كتاب الشعر » .

ويعتبر ثيوفراسطوس ، تلميذ ارسطوطاليس ، رائداً لمقالة الشخصيات . وقد جال في كتابه « شخصيات » ، جولات موفقة في تصوير بعض النماذج البشرية الشريرة. وهو بهذا يعتبر الكاتب الاغريقي الوحيد الذي استطاع ان يشق الطريق لهذا

النوع من المقالة ، وان يضع خطوطهـــا الأولى جلية موحية .

اما فلوطارخوس فقد وضع أسس المقالة التأملية في كتابه «اخلاقيات» (Moralia) وخاصة في فصله الذي سماه « تأخير الطعام » . وهو أقوى الكتّاب القدامى ، باستثناء سنيكا ، أثراً في رائدَي المقالة الحديثة : مونتين وباكون .

وكذلك الشأن في الأدب اللاتيني، فاننا نجد في آثار بعض اعلامه بذوراً لبعض أنواع المقـــالة الحديثة ، كالمقالة الوصفية والنقدية والتأملية . ونذكر منهم كاتو الاكبر ويوليوس قيصر وسالّوست وليفي وبليني الاكبر وتـــاكتوس وديوجينس ومرسيلينوس وكلوديان الشاعر . وهؤلاء جميعـــاً عاشوا في الفترة الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد ، الى القرن الرابع بعده. إلا أن هنالك بعض الكتّاب الذين تركوا أثراً أبلغ ، ومنهم هوارس الذي تُعتبر رسالته « فن الشعر » مقالة نقدية كتبت نظماً . وكونتليان (في القرن الأول ب. م) الذي عالج في كتابه « قواعد الخطابة » ، وسائل تدريب الخطيب، وطرفاً من تاريخ الأدبين الاغريقي واللاتيني ، وكان له بذلك قيمة تربوية وتاريخية . وكذلـك تلميذه بليني الأصغر ، الذي تُعتبر رسائله نوعاً من مقالات الرسائل . ومنهم الامبراطور ماركوس اوريليوس (في القرن الثاني ب. م) الذي يعكس كتابه «التأملات» صفات المفكر المتأمل الذي يفيض خواطره

في القرطاس بأسلوب متدفق حر طليق ، وهو الاسلوب الذي كتبت به المقالة فيما بعد .

ولكن أهمهم دون شك ، وأشدهم اتصالاً بموضوعنا ، شخصيات ثلاث تألقت في سماء الأدب اللاتيني وهم : شيشرون (١٠٦ — ٤٣ ق . م) وسنيكا (توفي ٦٥ ب. م) واولوس جيليوس (في القرن الثاني بعد الميلاد) . وقد قدم شيشرون لرواد المقالة الحديثة ، وخاصة في مقالتيه « الشيخوخة » و « الصداقة » ، مثلاً يحتذى من حيث الصورة والمضمون . ولكن سنيكا تفوق عليه في ذلك اذ كانت رسائله الى لوسيليوس ، كما قال باكون، نوعاً من المقالات او « المحاولات» . وهي تعكس لنا مدى تحضّره وعمق تأملاته الرواقية ، وسموّه عن مستوى العامة في التفكير ، وبراعته في التحليل باسلوب بليغ يجمع بين القوّة والسلالة . وبهذا كانت معيناً ثرّاً نهل منه كتّاب المقالة الأول في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بل ان مونتين نفسه نظر الى اسلوبها في عدد من مقالاته .

و « الليالي الاتيكية » لجيليوس ، من أقرب المحاولات الأدبية الى صورة المقالة الشخصية التي عرف بها مونتين. وهي تحتوي تعليقات موجزة حرة ، تتناول بعض الموضوعات التي عَبَر بها الكاتب أثناء مطالعته .

٤ - في العصور الوسطى

وعندما طويت صفحة الرومان في سجل التاريخ، وقامت على انقاضهم المسيحية سلطة مسيطرة عصفت بالوثنية والاشراك، تردّى الأدب في هوة لا قرار لها، واستمر في تردّيه هذا فترة نيفت على قرون عشرة. وانتهت مقاليد الأدب الى ايدي فئة من الوعـــاظ كان همهم الأول خلاص الانسان من سجن الجسد وتحرره من ربقة الشهوات، التي كان يرسف فيها سادراً في غيّه لا يثنيه رادع من اخلاق أو دين... فكانت هذه الفترة مرحلة ركود اندثر فيها هذا النوع من الكتابــة الأدبية او كاد، كما اندثر غيره من الأنواع، الى ان قيض له الانتعاش ثانيــة على أيدي رجال النهضة.

إلا ان نوعاً واحداً من أنواع المقالة البدائية، التي بذرت بذورها في عهد الرومان، كتب له ان يونق ويزدهر في هذه الفترة، وهي المقالة التأملية الفلسفية. فطبيعة الحياة آنذاك كانت تقتضي وجود مثل هذا النوع الذي كان يُصطنع في اكثر الأحيان لجلاء العقيدة والذبّ عنهـــا وردّ كيد خصومها ومقارعتهم الحجة بالحجة. ثم ان منابر الوعظ ومحافل العبادة، كانت تهيىء الفرص للتنافس، وتغري بالاتقان والتجويد.

ولعلّ «اعترافات القديس أغسطين» (حوالي ٤٠٠ ب.م)،

هي أبرع استهلال لهذا النوع . ثم تلتهـــا « مباهج الفلسفة » لبوثيوس (حوالي ٥٠٠ ب.م) ، وبعد ذلك نستطيع ان نرصد تطور هذا النوع في كتابات بيد وألفرد الكبير وتوما الاكويني وجيرالدوس كمبرنس وسواهم، حتى أواخر القرن الرابع عشر.

ويدخل في نطاق هذه الفترة ايضاً بعض المترسلين الفرس أمثال نظامي الكنجوي (في القرن الثالث عشر) ، وسعدي الشيرازي (في القرن الثالث عشر) الذي اشتهر بكتابه « الكلستان » وبرسائله ، وكذلـك مندفيـــل وشوسر من الكتّاب الانكليز ، وقد عكسا في كتاباتهما بعض سمات المقالة الوصفية ، والمقالة القصصية .

٥ – عصر النهضة

وكان الانقلاب الذي رافق عصر النهضة، مدعاة الى وصل ما انقطع من التقليد الأدبي عند الاغريق والرومان ✗ وهكذا عاد فلوطارخوس وسنيكا وشيشرون ثانية الى تبوّء مكان الصدارة .✗وظهر في هـذه الفترة بعض الاعلام الذين مهدوا السبيل أمام ازدهار هذا الفن الأدبي . نذكر منهم على سبيل المثال ، لا الحصر ، دانتي وبترارك ومكيافيلي وسانسوفيدو وسافونا رولا وارازمس ولوثر ومرغريت النـافارية ورابليه .

وهؤلاء جميعاً عاشوا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر . وسارت المقالة في انكلترا خلال ذلك، على مثل هذه الوتيرة ، وظهرت بذورها في آثار بعض كبـــار الادباء امثال تومـــاس اليوت ، وروبرت اشام ، وتوماس ولسون ، وفيليب سدني، وجون ليلي ، وروبرت جرين ، وجورج غـــاسقوينه وصمويل دانيال ، وتوماس مور ، ووالتر رالي .

٦ – في الأدب العربي القديم

آثرت تأخير الحديث عن بذور المقالة في الأدب العربي ، لكي اتناولها في شيء من التفصيل . فقد ظهرت بذور المقالة في أدبنا منذ القرن الثاني للهجرة . وتمثلت على أحسن صورهـــا في الرسائل ، وخاصة الاخوانية والعلمية. فلو نحينا جانباً الرسائل الديوانية التي كانت تتحجر في كل عصر ، في قوالب معينة يرثها الخلف عن السلف ، والتفتنا الى الاخوانيات ، وما تدور عليه من مسامرات ومناظرات وأوصاف وعتاب ، والى الرسائـــل التي كانت تتناول الموضوعات التي تفرّد بهـــا الشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف، لوجدنا انها تعكس خصائص المقالة ، لا كما عرفت في طورها الأول الذي استمر حتى القرن السادس عشر، بل كما عرفت عند رائديها في فرنسا وانكلترا.

ولولا انها تطورت هذا التطور المرذول الذي طبعها بطابع الصنعة الثقيلة المجوجة ، في الاسلوب الانشائي وفي الصور البديعية والبيانية ، لكانت المثل البكر لفن المقالة كما عرفتها الآداب الاوروبية الحديثة. واذا تصفحنا كتب الادب ومصادر التاريخ وجدنا امثلة كثيرة تدعم هذا الرأي الذي نذهب اليه.

فصفة الامام العادل ، للحسن البصري ، مثل جيد على المقالة الاخلاقية . وفيها يقول :

«اعلم يا امير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ومفزَع كل ملهوف . والامام العادل يا امير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق، الذي يرتاد لها اطيب المراعي ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من اذى الحر والقر .

والامام العادل يا امير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده . هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم. فلا تكن يا امير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال فأفقر اهله وفرق ماله . واعلم يا امير المؤمنين ان الله انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف

اذا اتاهـا من يليها . وان الله انزل القصاص حياة لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا امير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة اشياعك عنده وانصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الاكبر . واعلم ان لك منزلا غير منزلك الذي انت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك احبّاؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً،فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه . فالآن يا امير المؤمنين وانت في مهل قبل حلول الاجل وانقطاع الامل،لاتحكم يا امير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فـانهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك واوزار مع اوزارك . وتحمل اثقالك واثقالاً مع اثقالك » .

ففي هذه القطعة صورة دقيقة للامام العادل كما يراه الحسن البصري ، تتصل باتجاه الحسن الاخلاقي الوعظي اشد اتصال ، وتعكس لنا حرصه على التشخيص واخراج الصور من دائرة الرمز الى دائرة الواقع المشرق لتكون اقوى دلالة واكـثر جدوى في ابراز الموعظة الحسنة .

ورسالة عبد الحميد الى الكتّاب ، التي تضـع دستوراً للكتابة الديوانية ولاخـلاق الكتّاب ، قريبة الشبه بالمقالة النقدية الحديثة ، من حيث الموضوع والاسلوب . وكـذلك رسالته الى ولي العهد ، التي تدور حول ما يجب ان تكون عليه

اخلاقه في سيرته الخاصة وفي علاقاته مــع افراد حاشيته من القواد والموظفين ، وحــول تنظيم الجيوش ، تعتبر مقالة في السياسة وتدبير الحاشية. وكذلك رسالتاه عن الشطرنج والصيد تقتربان ، الى حد ما ، من اسلوب المقالة الحديثة. ورسالة سهل ابن هارون الى بني عمه في مدح البخل وذم الاسراف ، مثــل على المقالة الفكاهية وهي شديدة الشبه بمقالات اديسون وستيل. ورسالة الصحابة لابن المقفــع ، مقالة في سياسة الدولة وتدبير الرعية ، وفي نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه ، ورسائــــل الجاحظ ، وفصول كتبه التي كادت تلم بكل موضوع ، ومــا فيها من فكاهة عذبة ، وانطلاق في التعبير وتحرر من القيود ، وتدفق في الافــكار وتلوين في الصور ، وتنويــع في موسيقى العبارات ، خير مثل على النموذج المقالي في الادب القديم. وقد وصفها المسعودي في مروج الذهب ، وصفاً يدعم هذا الرأي ، فقال :

« وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمهــا احسن نظم ورصفهـــا احسن رصف وكساها من كلامه اجزل لفظ. وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة [1].

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٤٤.

وحسبنا مثلاً على مقالاته التصويرية ، كتاب « البخلاء » ، الذي صوّر فيه حياة البصرة وبغداد في عصره ، احسن تصوير وأدقه ، وعرض نماذج رائعة من البخل ، في اشخاص بعض معاصريه ، وبعض من ابتدعتهم مخيلته منهم ، على غير نسق موجود ، وباسلوب تفرد به وأصبح علماً عليه .

وفي القرن الرابع خطت الرسائل المقالية خطوة ذميمة نحو التكلف والرهق ، فغدت ، وان تنوعت موضوعاتها ، متحجرة الاسلوب ، مما يبعدها في نظر النقد عما يقتضيه اسلوب المقالة الحديثة من تدفق وحرية وانطلاق . ولا نجد في هذا القرن كاتباً يعادل أبا حيان التوحيدي في طلاقة تعبيره وغزارة معانيه وبراعة تصويره . فرسائله – على ما يتسم به بعضها من الطول – شديدة الشبه بالمقالات الموضوعية الحديثة . وفي فصول مقابساته مشابه من المقالات التأملية والفلسفية ، وفي « الامتاع والمؤانسة » صور شخصية بارعة ، ولعل اصلحها للتمثيل في معرض الحديث عن المقالة ، وصف الصاحب بن عبّاد ، فهي صورة هجائية بارعة ، التزم فيها اسلوباً هادئاً رصيناً ، خالياً من التهجم المفضوح والسباب البذيء ، حتى لا يفوّت على نفسه الغرض الذي رمى اليه . وما أقرب روحها من روح مقالات اديسون وستيل الهجائية الساخرة ، التي كانا يصطنعان لها اسلوباً مبطناً لا يتورطان فيه بالتهكم الصارخ والضحك المجلجل ، قال :

« ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف اشياء وأخذ من كل فن اطرافاً . والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجّنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب . وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الالهي خبر ولا له فيه عين ولا اثر . وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر وليس بذاك . وفي بديهته غزارة ، وأما رويّته فخوّارة ، وطالعه الجوزاء والشّعرى قريبة منه ، ويتشيّع لمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع الى الرقة والرأفة والرحمة . والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته . شديد العقاب طفيف الثواب طويل العتاب بذيء اللسان يعطي كثيراً قليلاً (اعني يعطي الكثير القليل) . مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب بعيد الفيئة قريب الطّيَرة حسود حقود حديد ، وحسده وقف على اهل الفضل وحقده سار الى أهل الكفاية . أما الكتّاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته . وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمّة ، نخوة وتعنّتاً وتجبّراً وزهواً . وهو مع هذا يخدعه الصبيّ ، ويخلبه الغبيّ ، لأن المدخلَ عليه واسع والمأتى اليه سهل ، وذلك بأن يُقال : مولانا يتقدّم بأن أعارَ شيئاً من كلامه

ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرض اليه من فرغانة ومصر وتفليس الا لأستفيد كلامه وأفصُح به واتعلم البلاغـة منه . لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيهـــا آيات فرقان، واحتجاجه من ابتدائها الى انتهائها برهان فوق برهان. فسبحان من جمع العالم في واحد، وابرز جميع قدرته في شخص. فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهمٍّ له ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم الى الخازن بأن يخرج اليه رسائله مـع الورَق والوَرِق ويسهِّل له الاذن عليه والوصول اليه والتمكن من مجلسه ، فهذا هذا .

ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه الى أبي عيسى بن المنجم ويقول: قد نحلتك هذه القصيدة، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهمج المنشدين . فيفعـــل ابو عيسى ـ وهو بغدادي محكَّك قـــد شاخ على الخدائع وتحنك ـ وينشد، فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره : أعِدْ يا أبا عيسى ، فانـك والله مجيد ، زه يا ابا عيسى ، والله قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك . ليس هذا من الطراز الأول حين انشدتنا في العيد الماضي، مجالسنا تخرّج الناس وتهب لهم الذكاء،وتزيد لهم الفطنة، وتحوّل الكودن عتيقاً والمحمّر جواداً. ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنيّة وعطيّة هنيّة . ويغيظ الجماعة من

الشعراء وغيرهم . لانهم يعلمون ان ابا عيسى لا يقرض مصراعاً ولا يزن بيتاً ولا يذوق عروضاً . » [1]

فأي صورة ابلغ في الازراء بصاحبها ، والغضّ من شأنه ، والاضحاك منه ، على شهرته بين معاصريه ، من صورة هذا المدعي الذي ينظم الشعر في مدح نفسه ثم ينحله الناس ليقولوه فيه . انها مقالة رائعة في تصوير المساوىء والكشف عن المعايب ، صاغها ابو حيان على غرار صور استاذه الجاحظ التي ابتدعها في « البخلاء » ، وفي « رسالة التربيع والتدوير ».

وبعد ، فقد عرضت بعض المحاولات المقالية عند العرب ، على مقاييس النقد الحديث ، في تحديده للمقالة . ولعمري ان الفنون الأدبية تمرّ في اطوار من النمو والتطور والتنقيح ، فينأى اللاحق منها عن السابق ، حتى ليتباينان اشد التباين . وفي الامثلة القليلة التي ذكرتها ، دليل على ان العرب ، في نطاق فهمهم للتعبير الأدبي ، قدموا بعض الرسائل والفصول الأدبية الممتعة ، التي يصح ان ندرجها تحت الأدب المقالي ، مع شيء من التجاوز والاعتدال في التحديد ، شأنهم في ذلك شأن اكثر الأمم التي سبقتهم او عاصرتهم .

(١) الامتاع والمؤانسة ج١ ص ٥٤ — ٥٦ .

القسم الثاني

المقالة في طورها الحديث



١ – مونتين (١٥٣٣ – ١٥٩٢)

يجمع مؤرخو الآداب الغربية ، على أن المقالة الادبيـــة الحديثة ، عرفت سبيلها الى الحياة على يـــد الكاتب الفرنسي ميشل دي مونتين X وقد بدأت بذورهـا تتكون في نفسه عندما اعتزل الحياة العامة ، حيث كان يعمل في المحاماة، وترك بوردو الى مزارعه الريفية سنة ١٥٧٠ ، وذلك ليعيش حياة يرف عليها الهدوء ، وتخصبها القراءة ، على حدّ قوله X ا اكصنا

ويمثل مونتين في ثقافته وذوقه ، رجل النهضة الفرنسي أحسن تمثيل . وقد ألهبته حماسة أبيه وشغفه بالثقافةالايطالية الانسانية ، فاتجه هو بدوره الى دراسة اللاتينية ، قبل ان يشدو في الفرنسية . وقد تتلمذ فيها لبعض المشاهير من علماء الكلاسيكيات في عصره .

وهكذا استقطبت ثقافته حول اللاتينية . ومن خلالهـــا استطاع ان يقرأ روائع الأدب الاغريقي . اما عنايته بالأدب

الفرنسي ، فقد اقتصرت على بعض المؤلفين وخاصة في حقل التاريخ .

وعندما تقدمت به السن أخذ يعنى بمشكـــلات عصره الفكرية والاجتماعية التي انبثقت من نهضة الأدب الكلاسيكي والفلسفة القديمة ، ومن اكتشاف العالم الجديد ، وطغت موجتها حتى عمت اوروبا كلها . ولكنه بعد ذلك كله ، آثر ان يلجأ الى مكتبته في مقاطعته الخاصة باسمه ، ولم يمض عليـــه فيها طويل وقت ، حتى دفعته الرغبة في تخليد اسمه وجلاء أفكاره ، الى الكتابة والتسجيل .

وادار مونتين عينيه فـــيما حوله من أنواع الأدب المقروء والمسموع ، فرأى سيلاً طاغياً من الحكم والامثال وجوامــــع الكلم ، التي تحدرت الى اوروبا عن الآداب القديمة . واخذ كتّاب عصر النهضة يختارون منها ، ويزيدون عليها ، ما يلائم ثقافة العصر وذوقه وروحه . ولهذا وجدناهم يجمعون الحكم والأقوال السائرة ، التي تدور حول الحياة والموت ، وحول بعض العادات الغريبة ، وذكاء الحيوان وقوة الخيال. ولم يكن لهم فيها سوى فضل الاختيار والجمع والتنسيق ، أما شخصياتهم فلم تظهر في هذه المجموعات ، ولم يكن طبيعياً أن تظهر .

وعندما بدأ مونتين الكتابة ، حوالي سنة ١٥٧١ ، استوحى كتّاب هذه المواعظ والدروس الخلقية . ولم يكن شاذاً ولا

منحرفاً في هذا الاستيحاء ، اذ ان الدافع الذي استحثه على الكتابة كان في طبيعته اخلاقياً تهذيبياً . ولم يكن يطمح آنذاك الى ان يأتي بعمل فذ جديد ، بل كان كل ما يطمح اليه ، هو ان يضفّر ضميمة من تلك العبارات والافكار الجميلة الرائعة التي يعبر بها أثناء قراءته . وتبعاً لذلك كانت آثاره الاولى لا تختلف اختلافاً بيناً عن آثار هؤلاء الجُمّاع (المؤلفين)؛ فهي عبارات ملتقطة من هنا وهناك ، تدور حول بعض المشكلات الخلقية والمعاشية . وكان كلما مضى في كتابته قدماً، يضيف عبارة هنا او تعليقاً هناك . الا ان هذه الآثار عامة كانت تخلو من العنصر الذاتي خلواً يكاد يكون تاماً . وهذه المرحلة التجريبية تمثل الطور الاول من نمو مونتين الادبي ، وقد استغرقت العامين الاولين من أعوام عزلته .

ولكنه ما عتم عقب ذلك ، ان اخذ يشق طريقه نحو ابداع فن جديد ، يبتعد فيه عن تلك الدروس الخلقية التي احتذى فيها آثار سابقيه. وقد حدث ذلك حوالي سنة ١٥٧٤، وكانت النتيجة التي خلص بها في هذا الطور ، هي ابداع هذا الفن الادبي الجديد ، الذي سجل له التاريخ فيه فضل الريادة ، وكان ذلك قبل ان تظله سنة ١٥٨٠ .

ولعل السبب الاول الذي أدى الى هذا التطور هو مزاجه الخاص ، والظروف التي أحاطت به آنذاك . فقد استغرق

مونتين اثناء عزلته في بعض التأملات ، وأخذ ينظر الى مجتمعه بعين ناقدة ، ويستبطن أعماق نفسه بعقل ممحّص ، وخاصة في فترة المرض الذي انتابه حوالي سنة ١٥٧٨ . ولكن هذا كله لا يعلل هذا الاكتشاف الذي توصل اليه ، بل كانت ثمة تيارات ادبية قوية ، رفدت هذا المجرى الصغير في نفسه ، واعدته للاضطلاع بهذه المهمة خير اعداد وأتمه .

تنبئنا المصادر ، انه وقع في سنة ١٥٧٢ تحت تأثير كتابات فلوطارخوس ؛ وقد وجد فيها ، وخاصة في «الاخلاقيات» ، بعض النماذج الادبية الحية التي تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك الشذور الجافة التي كانت عينه تقع عليها في آثار معاصريه ، فتكون زاداً لقلمه الغض الناشىء . ولم تكن كتابات فلوطارخوس تخلو من الامثال والاوابد والاقوال السائرة ، الا ان هذه لم تكن قوام فنه الادبي ، بل كانت تمر عرضاً أثناء تأملاته وتكتسي بحلةمن بيانه الرائع ، وتطفو الى السطح بعد ان تنقحها آراؤه الشخصية وتخلصها من شوائب الفتور والجمود ، التي تخالط الحِكم الشعبية عندما تنبتّ عن مناسباتها الاولى التي ألقيت فيها. وقد تأثر مونتين أيما تأثر بمسحةالطلاقة واليسر التي تلفّ كتابات فلوطارخوس فتخرج سليمة من التكلف والرهق . وقضى مدة طويلة عاكفاً على هذه الآثار الممتعة يستنطقهافتجيب ويستلهمهافينهمر عليه وحيها، والعملية

الأدبية سائرة في نفسه سيرتها الطبيعية ، تصقل ذوقه وتنقح تعبيره وتمده بصور جديدة وأحاسيس مبتكرة .

وسيرة هذا التحول تتضح في بعض كتاباته التي خطها يراعه بين سنتي ١٥٧٨ و١٥٨٠ ، وخاصة في «تربية الأولاد» و « حب الآباء للأبناء » و « الكتب » و « القسوة » و«من أشبه أباه فما ظلم » . وهي تظهرنا على أن مونتين لم يعد قانعاً بجمع تلك الفرائد والأقوال المأثورة ، التي كانت تسقط في ساحته أثناء تمرسه بعملية القراءة والاقتباس ، بل انتقل الى مرحلة جديدة قوامها التأمل العميق في الموضوعات الخلقية والنفسية . إلا أنه لم يتنازل عن الامثال وجوامع الكلم مرة واحدة، بل اخذ يختار منها ما كان صالحاً للتضمين في كتاباته، ولجمع شتات أفكاره ، ثم يرصع بها بعض الصور والحوادث التي يستمدها من ملاحظاته الخاصة وتجاربه الشخصية . ونحن نجد مصداق ذلك في مقالته عن «تربية الأولاد» ، فقد استهلها بمبدأ عام يحدد القاعدة الأساسية التي ينبغي أن يستند اليها في تربية الأولاد . ثم انتقل الى الحديث عن تربيته الخاصة ، وعن بعض الأحداث التي مرت به أثناءها

وهكذا أخذ مونتين يغلّب العنصر الشخصي في كتاباته على العناصر التي كانت ترفده من قراءاته المختلفة ، ولكنه في معرض حديثه عن تجاربه الخاصة ، لا ينسى ان يدعم أفكاره ببعض

الأقوال المأثورة ، والحِكم الجارية مجرى المثل . وتمتاز مقالاته في الطور الثاني بأنها كانت أطول من سابقاتها ، وبأنه لم يكن فيها حريصاً على التصميم المحكم والتنسيق الدقيق ، شأنـــه في محاولاته الأولى ؛ لأنه أصبح يحس الآن بأنه امتلك ناصية الفن ، وشق طريقه الخاصة فيه ، فله ان يجيل قلمـه في شتى الموضوعات بحرية وانطلاق وتدفق .

وفي سنة ١٥٨٠ جمع تلك الفصول التي كان قد كتبهـــا ، وعدتها اربعة وتسعون ، ونشرها في بوردو فيجزئين ، وسماها «محاولات» . وقد نبه القارىء في مقدمته التي كتبها ، بأنه انما يصور نفسه أو شرائح منها ، في هذه الشذرات التي يعنى بنشرها على الناس .

وعكف مونتين على هذا المولود الجديد ، يتعهده بالحـدب والرعاية والسهر الطويل ، الى ان أتيح له في سنة ١٥٨٨ ان يخرج طبعة جديدة نقح فيها مقالاته السابقة ، وتولاها بالصقل والتهذيب ، وضم اليها ثلاث عشرة مقالة جديدة ، كان من بينها بعض تلك المقالات التي استهل بها شهرته الأدبية . وهذه المقالات تمثل أوج ما بلغه من تطور وارتقاء في هـــذا الفن الجديد ، وقد تجلت فيها موهبته الأدبيـة كاملة مستحصدة . وتمتاز عما سبقها من مقالاته ، بتألق العنصر الشخصي ، ويتسم اسلوبها بالحرية والتدفق والتشعب ، والسير على غـــير أصول

مرعية ، او قواعد معينة . ولم تخلُ هذه المقالات من الامثال والحكم السائرة خلواً تاماً ، إلا انها كانت تأتي عرضاً دون قصد او تعمد ،وكانت تقف على هامش العمل الادبي ، عنصراً ثانوياً، بالنسبة الى ذلك الفيض من التأمــلات العميقة ، والتجــارب الشخصية الصادقة . وقد كان دأبه فيها ، ان يمعن في الحديث عن نفسه ، وعن ذكريات صباه وشبابه ، وعن الاحـــداث الطريفة المعجبة التي مر بها في طور الرجولة والاكتهال ، وكان لا يتورع عن كشف عيوبه للناس، وعرض صور من شذوذه، شذوذ كل اديب ولهذا نجرؤ على القول بأن مونتين بــذر في مقالاته هذه ، بذور التراجم الشخصية التي استوت فيما بعد فناً قائماً بذاته له اصوله ومشخصاته.

٢ – فرنسيس باكون

لقد طبقت شهرة مونتين ومقالاته ارجاء القارةالاوروبية، ولم يمض غير قليل وقت حتى عبرت المانش الى انكلترا . ففي سنة ١٥٩٥ ، اي بعــد وفاته بثلاث سنوات ، ترجم جون فلوريو ، احد نظار المدارس الانكليزية ، هذه المقالات ، في صورتهــا الاخيرة . ولعــل هذه الترجمة هي الــتي امتثلت للطبع سنة ١٦٠٣ . وقــد لاقت اقبالاً منقطع النظير فطبعت

مرات عدة، في اوائل القرن السابع عشر. وغدت بذلك غذاء دسماً للقارىء الانكليزي في عصر الياصبات ، وعكف عليها وتأثر بها بعض كبار الادباء في ذلك العصر .

واول أثر ادبي في اللغة الانكليزية ، اتسم بميسم هذا الفن الجديد ، كان مجموعة من المقالات التي دبجها يراع محام ناشىء كان في خدمة الملكة آنذاك ، وهو فرنسيس باكون ، وكان ذلك سنة ١٥٩٧ . وكانت عدتها عشراً ، لا تحمل من سمات فن مونتين إلا الاسم ، إذ كانت اقرب الى الامثال والحكم منها الى الفيض الادبي المتدفق الذي عرفناه عند مونتين . وهي بهذا تنتمي الى كتابات القرن السادس عشر ، خارج الدائرة المونتينية ، ففيها من تلك ذلك الحرص على ايراد الاقوال السائرة والافكار الحكمية المركزة . وينعدم فيها العنصر الشخصي ، وصور التجارب الخاصة . وقد اشار الاستاذ العقاد الى هذا الفرق بينه وبين مونتين فقال :

« فمونتين فياض مسترسل كثير الاغراض متعدد الملامح الشخصية قريب في اسلوبه الى اساليب المقاليين المحدثين. ولكن باكون– على دأبه في جميع محاولاته– كان اقرب الى الاحتجاز والتركيز ودسومة المادة الفكرية واجتناب الالوان الشخصية والملامح الخاصة التي تنم عليه وعلى الجانب الانساني فيه »[١]

---

(١) عباس محمود العقاد : فرنسيس باكون ، ٨٢ .

وهذا الفرق الذي لمسناه بينهما ، والذي اشار اليه الاستاذ العقاد، ناجم عن تباين مذهبيهما في تلقي الحياة والصدورعنها. اما مونتين فقد اعتزل الناس والحياة ليخلو الى نفسه يتأملها ويستبطن اغوارها، وهكذا خرجت مقالاته مزيجاً من تجارب الشباب ونزواته وتأملات الكهولة ومـــا تتسم به من رزانة وتحرج . واما باكون فقد كان آنذاك في مطلع حياته العملية، وكان الطموح يملأ جانبيه ويملك عليه اقطار نفسه، ويرسم امام عينيه هالة المثل الاعلى في الحكم والرئاسة ، ولذا جعـــل من مقالاته دروساً واضحة مركزة ، لأولئك الذين يكدون ويجتهدون حتى يبلغوا النجاح في حياتهم العملية .

إلا ان أثر مقالات مونتين ، ما لبث ان شق طريقه الى الادب الانكليزي عريضاً لاحبا ، وكان ذلك على يدي وليم كورنوالس[1]، صديق بن جونسون ، الذي اصدر مجموعة من المقالات في مجلدين ظهرا سنة ١٦٠٠ و١٦٠١ على التوالي . وقد عرض فيها لبعض الموضوعات العامة التي عرض لها مونتـــين وباكون كالحب والمجد والطموح والشهرة والحزن والغرور والحظ وما إلى ذلك . وكتب اكثرها بضمير المتكلم ، وادارها حول

---

(١) راجع تفصيل اثر مونتين في كورنوالس في كتاب :
The French Influence in English Literature.
by A. H. Upham pp. 265-307

نفسه ، شأن مونتين الذي اعترف له كورنوالس بدين لا ينسى، في غير موضع من تلك المقالات . وقد استعان فيهـــا ببعض الاقوال المأثورة التي استقاها من قراءاته ، إلا انه شأن مونتين ايضاً ، اضاف اليها الكثير من تجاربه الخاصة ، وجعل منهـــا معرضاً لآرائه وذوقه وأحاسيسه . ونتيجة لذلك كله ، لقيت هذه المقالات تقديراً كبيراً في الاوساط الخاصة والعامـــة ، سحابة النصف الاول من القرن السابع عشر .

واذا عدنا الى باكون ثانية ، نجد انه يصدر في سنة ١٦١٢ طبعة جديدة موسعة من مقالاته ، وقد اصبح عددها ثمانيـــاً وثلاثين ، بعد ان كانت في طبعتها الاولى عشراً .

وقد اعاد فيها طبع المقالات القديمة دون ما تعديـــل ، واحتفظت بعض المقالات الجديدة بطابع الوعظ المركز، الذي يتسم بالدسامة والاحتجاز، على غرار المحاولات الاولى . الا ان الكثرة الغالبة منها تؤرخ بداية اتجاه جديد في القالب والمحتوى. فمن حيث القالب نراه يعمد الى كثير من التصميم والتنسيق . ومن حيث المحتوى نجد انه يضرب صفحاً عن الحِكم المركزة والأقوال المأثورة ، ويغادرهـــا الى شيء من الحديث المرسل المستفيض الذي ينضح بالحيوية والتدفق والالفة .

وهذا التطور الذي بدت مظاهره الاولى في هذه المجموعة، اصبح مذهباً واضح المعالم في المجموعة الاخيرة التي اصدرها سنة

١٦٢٥ ، وضمنها ثمانياً وخمسين مقالة ، بما فيهـــا مقالاته التي نشرها في مجموعتيه السابقتين. وقد اجال باكون قلمه في المحاولات السابقة منقحاً ومهذباً ، وخاصة المقالات الجديدة في الطبعة الثانية ، فقد فازت بالنصيب الأوفى من عناية الكاتب، فأجرى عليها كثيراً من التعديلات لكي تلحق بمقالاته الجديدة من حيث المادة والصياغة . وقد مثلت هـذه المقالات ، مفارقة كبيرة بالنسبة الى مقالاته السابقة ، حتى انها بانت عنها في اكثر من خاصة . اذ ازداد حظها من التصميم والتنسيق والإطالة ، كما ازداد نصيب الموضوعات من الإسهاب والتحليل . فضلاً عن ان اسلوبه تجلى في حلة قشيبة ، فأصبح امتن اسراً وأدق تعبيراً وأوسع خيالا وأحفل بالبلاغة والزخرف والتشويق ، الا ان الفرق الظـــاهر الذي يطغى على كل ما عداه ، هو كثرة الاستشهادات التاريخية، والاعتماد على الآراء الشخصية والتجارب الخاصة في التفسير والتوضيح والاستدلال .

وقد وصف الاستاذ العقاد مقالات باكون في هذين الطورين وأوضح ما بينهما من فروق فقال:

«فمقالات باكون في بواكيرها كانت طرائف من المتفرقات الفكرية تجمعها سلسلة الموضوع والعنوان في ايجاز شديد ، غير محفل فيه بالتفصيل والتوضيح، كأنما يكتبها الكاتب لنفسه فهو غني عن تفصيلها وتوضيحها ، لعلمه بقصده منها حين الحاجـة

اليها . أو كأنما هو يكتبها بلغة الاختزال الفكري التي يفهمها المرتاضون على قراءة هـــذا الضرب من الاختزال ، ويجهد في شرحها غير المرتاضين عليه .

ثم جنحت في صيغتها الاخيرة الى التسمح بعـد التزمت ، والسخاء بعد الضنانة ، والتفسير بعد الإيمـــاء والاقتضاب . وازدانت في هذه الصيغة باجمل ما يزدان به النثر البليـغ من براعة التشبيه وطرافة الأمثولة واختيار الشواهد من المأثورات اللاتينية واليونانية في سياقها الملائم وموقعها المنتظر»[1].

وقد اجتمعت عوامل عدة ، لتؤدي الى هذا التطور الواضح الذي تم بين عامي ١٥٩٧ و١٦٢٥ . منها ان باكون كان يطمح دائماً الى تقعيد علم للاخلاق . وقـــد اقترح في كتابه « ترقية المعارف » الذي اصدره سنة ١٦٢٣ ، وسيلة لتحقيق هـــذا المطلب ، وهي ان تكتب مجموعة من الرسائـل القصيرة تدور حول الشهوات والفضائل والنماذج الاخلاقية . ولم يحاول باكون ان ينفذ هذا المشروع وان يخصه بجزء من نشاطه الأدبي ، الا ان بعض مقالاته الجديدة ، التي ظهرت في الطبعة الأخـيرة ، تدور حول شيء من ذلك ، كمقالته عن « الحسد » ومقالته عن « التظاهر والرياء » .

---

(١) المرجع المذكور آنفاً : ٨٥ - ٨٦ .

وهنالك عامل آخر أدّى الى هذا التغيّر الواضح في اسلوبه المقالي وهو « رسائل سنيكا » التي سبقت الاشارة اليها . فقد كان هذا الكتاب الأخلاقي، واسع الانتشار بين القراء آنذاك، وكثيراً ما اقتبس باكون منه في كتاباته . ويذكر مؤرخو الأدب ، انه في مقدمة لم تنشر لمجموعة المقالات التي طبعت سنة ١٦١٢ ، ذكر في معرض حديثه عن عنوان الكتاب « ان الاسم حديث، مع ان الموضوع قديم ، اذ ان رسائل سنيكا الى لوسيليوس – اذا نظر اليها الانسان بتمعن – ليست إلا مقالات ، اي تأملات منثورة ، مع انها مجموعة من الرسائل».

والعامل الأخير ، الذي أدى الى هذا التطور ، هو أثر مونتين في باكون . فمما لا شك فيه ، ان باكون بعد ان اقبل على هذا الفن واستغرق فيه ، واخذ يراجع طريقته البدائية في الكتابة ، عاد ثانية الى مونتين ، فقرأه بتمعن وتمحيص ، فخرج منه بهذه السمات الجديدة التي وسمت مقالاته الأخيرة؛ فبتأثير مونتين ، عني باكون باسلوبه ، فوفر له بعض القيم الجمالية والزخرفية التي لم يعرفها من قبل . وعني بموضوعاته ، فمال عن ترصيع الحكم والمواعظ المركزة، الى الحديث المسهب المتصل الذي يدعمه بالشواهد والايضاحات ، مما استمده من كتب التاريخ ومن تجاربه الخاصة . وأباح لنفسه اخيراً ان

يعنى بابراز العنصر الشخصي، لتتوفر لكتابته جميع مقومات الأدب الرائع .

وقد اشار الاستاذ العقاد الى هـــذا التغير الذي طرأ على اسلوب باكون في مرحلته الأخيرة ، وحـــاول ان يعلله فقال :

« وقد لاحظ النقاد بحق انها كانت في صيغتها الاخـــيرة أحفل بالبلاغة والزخرف وفنون التخيل والتشويق ، منهـا في صيغتها الاولى . واستطرد بعضهم من هذا الى ملاحظة عجلى ليس فيها بصائب ، لأنه حسب ان هذا الاختلاف بين اسلوب الشباب واسلوب الشيخوخة ظاهرة مستغربة لا تجري مـــع المعهود من طبائـــع القرائح الانسانية . فان القرائح في الناس عامة ، أخصب بالخيال والرونق ايام الشباب ، خلافاً لما بـــدا من أسلوب باكون في حالتيه على رأي اولئك النقاد .

ولا حاجة هنا ، على ما نرى ، الى مجاراتهم فى اخـــتراع بدعة غريبة من بدع القرائح الانسانية عامـــة . إذ المألوف في الواقع ، ان يكون الشباب أقرب الى تكلف الوقار لأنه مظنة الخفة ، وان تكون الشيخوخة اقرب الى الخفة لأنهـــا مظنة الفتور والجمود .

وثمة سبب آخر نرجع اليه قبل الوثوب الى البدع والخوارق التي لا تشاهد في جميع الاحوال . فمما لا شك فيه ان باكون

بدأ تجربته الاولى في فن المقالة ، وهو مترفع عنه ناظر اليه نظرة المتحفظ الذي لا يوليه جهده من العناية والاحتفال. وقد كانت له قبل كتابة المقالات فصول تفيض بالتخيل والرونق ، كما تفيض بها مقالاته الاخيرة بعد ان عاودها وهو معني بها محتفل بتنميقها ، فليس في قريحته من هـذه الناحية ظاهرة جديدة او غريبة تخالف المعهود والمألوف .

وإنما هو اكتراث بعد تهاون ، واقبال بعد تردد . وما كان هذا التحول من التردد الى الاقبال بالمستغرب ، بعـد شيوع المقالات وتسابق الخاصة والعامة الى مطالعتها والاستزادة منها، وتلاحق ترجماتهـا بالفرنسية واللاتينية والايطالية في سنوات قليلة. فقد تغير تقدير باكون لمقالاته تبعاً لتقدير القراء والنقاد. وبدا منه الارتياح الى رواجها والاعجاب بها في معارض شتى، فأشار مغتبطاً الى تكرار طبعها ، وقال في خطابه الى اسقف ونشستر : انه لا يجهل ان هذا الضرب من الكتابة يضيف الى اسمه سمعة وسطوعاً فوق ما استفاده من الكتب الاخرى مع قلة العناء فيه . وقـال في رسالته الى دوق بكنغهام : ان المقالات اروج اعماله لانها على ما يظهر ادنى الى شواغل الناس طواياهم» [1].

---

(١) المرجع السابق : ٨٣ - ٨٥ .

٣ - بين مونتين وباكون

ولكن على الرغم من تأثر باكون في مقالاته بمونتين واقتدائه به في الصياغة والمحتوى وعناوين بعض المقالات، نجد ان بينهما فروقاً اساسية تعزى في الاكثر الى ما بينهما من تباين من حيث الشخصية والمنزع الادبي . فمن حيث الصياغة والقالب ، نجد ان مقالة باكون ادنى الى القصر ، واشد إحكاماً وأدق تصميماً واكثر اقتراباً من الموضوعية . اما من حيث المحتوى ، فان غاية باكون كانت عملية، اذ كان يرمي من وراء هذه المقالات، الى تقديم بعض النصائح العملية لهؤلاء الذين تتطلع نفوسهم الى العمل في البلاط ، او في مناصب الدولة العليا . وهي من هذه الناحية ، تشبه الى حد كبير تلك النصائح التي كان يوجهها الادباء والكتّاب ، الى الناشئين من الكتاب ليتيسر لهم الاضطلاع باعمالهم في خدمة الخلفاء على الوجه الأكمل . ومن هذا القبيل رسالة عبد الحميد المشهورة ، وتلك الرسائل والكتب التي تدور حول ادب الكاتب في الانشاء والسلوك .

ونجد مصداق ذلك ، في العنوان الذي توّج به مجموعة مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٥. فقد دعاها «مقالات اونصائح مدنية وخلقية » . وهذا يعني انه اراد من كتابه هذا ، ان

يكون دليلا أدبياً وسياسياً للناشئة من رجال البلاط او رجال السياسة . ونستطيع ان ندرك غاية باكون تمام الادراك ، من تلك العناية الفائقة التي بذلها في مقالاته الاجتماعية والمدنية ، كمقالاته عن فائدة الزواج والعزوبة للرجال الذين يتولون المناصب العامة ، وعن الوسائل التي تيسّر الوصول الى المناصب الرفيعة ، وعن أحسن الوسائل لمعاملة الرعية الثائرة ، وعن أثر السفر في تهذيب الرجال ، ومـا الى ذلك من المقالات التي تذكرنا بمقالات ابن المقفع في صحابة الخلفاء ، وادب الحاشية وواجبات الخليفة .

ونستطيع ان نوجز ما مضى بقولنا : ان باكون الذي أفاد من مقالات مونتين ، فائدة ظاهرة ، استطاع ان يأتي بجديد في هذا الفن الناشىء[1] .

٤ ـ نهضة المقالة الانكليزية بعد عودة الملكية

في تلك الفترة التي انصرمت بين نمو البذور التي طرحها مونتين في حقل المقالة، وعودة الملكية الى انكلترا سنة ١٦٦٠، نلتقي ببعض الكتّاب المغمورين، الذين جربوا اقلامهم في تحبير

(١) راجع تفصيل تأثر باكون بمونتين في كتاب **Upham** المشار اليه سابقاً .

المقالات ، متأثرين بأحد الاسلوبين: اسلوب مونتين، وأسلوب باكون . ولكن واحداً منهم لم يترك أثراً ذا قيمة في هـــذا السبيل ، ان في القالب او في المضمون .

وقد مرت المقالة في هذه الفترة بمحنة . ولعل ذلك عائد الى انصراف اكثر الكتّاب الى معـالجة « الصور الشخصية » او الى المشاركة في الخصومات السياسية والحزبية التي تلظّى اوارها في ذلك الحين . ولكن ما لبثت المقالة ان استردت مكانتها ، في فترة الهدوء التي عقبت عودة الملكية . وكان للتقليد الذي تركه مونتين فيها أثر كبير، في نهضتها تلك . وقد يعزى ذلك الى اتجاه القارىء الانكليزي آنذاك نحو الاطلاع على الادب الفرنسي ، بعد عودة الاسرة المالكة من فرنسا . او الى كون مقالات مونتين بما فيها من شك في القيم ، ومن حرية في التفكير والتعبير ، اكثر ملاءمـة للمزاج الانكليزي في ذلـك الوقت [illegible]ـي اختلت فيـــه المفاهيم واهتزت القيم وقـــد ترجمت مقالات مونتين في هذه الفترة ترجمة جديدة متقنة ، نسخت ترجمة فلوريو ، وطبعت ثلاث طبعات قبل سنة ١٧٠٠ .

وقد جرى ذكر مونتين على اقلام اعلام الكتّاب في تلك الفترة ، ومنهم ابراهام كاولي (١٦١٨ – ١٦٦٧) ودريدن (١٦٣١ – ١٧٠٠) ووِيشرلي (١٦٤٠ – ١٧١٦) . واشتهر منهم في كتابتها كاولي، الذي تزود لها بثقافة كلاسيكية عميقة

شاملة ، وبخبرة واسعة في الشؤون العامة ، فضلاً عن أسلوبه العذب الرقيق، الذي اكتسبه نتيجة لتمرسه بنظم الشعر فترة من الزمن . ثم قدر له ان يعتزل الحياة العامة ، بعد ان يئس من مكافأة الملك شارل الثاني له ، لقاء ولائه للملكية ودفاعه عنها. وقضى سنوات عزلته الاربع في تأمل وكتابة؛ ونشرت مقالاته لأول مرة سنة ١٦٦٨،وهي تشي بتأثر شديد بالاسلوب المونتيني ، وخاصة في بث أحاسيسه الخاصة وتجاربه الشخصية وفي تضمين بعض الاستشهادات والاقوال المأثورة، التي اقتبسها عن الكتّاب المتقدمين ، وفي اسلوبه الطلق الأليف ، الذي يتدنى احياناً الى مستوى لغة الكلام العادي .

وكذلك اشتهر في هذه الفترة سير وليم تمبل (١٦٢٨ — ١٦٩٩) الذي اسهم في الحياة السياسية بنصيب كبير . وكان كلما خلا الى نفسه في مقاطعته الخاصة في سُري يدرّن بعض تأملاته بأسلوب أدبي حر طليق ، في مقالات تدور في الفلك المونتيني ولا تندّ عنه ، وقد نشرت مقالاته هذه في ثلاثة أجزاء .

وقد عني بعض كتّاب هذه الفترة بالمقالة ، وتركوا فيها بعض الآثار التي يتضح فيها تأثير مونتين وباكون . وبانتهاء هذا القرن ، ينتهي الطور الأول من تاريخ المقالة الانكليزية ، هذا الطور الذي يشمل مرحلة التأثر بمونتين اولاً ثم به وبباكون ثانياً .

اما الأول فقد طبعها بطابع الصراحة والحرية في التعبير والحرص على ابراز العنصر الشخصي . وأما الثاني فقد ترك فيها خصائصه في التركيز والاحتجاز والموضوعية . واجتمع أثرهما فيهـــا ، فيما أبداه الكتّاب من عناية بالموضوعات الاخلاقية بمعناها الواسع . على ان تعالج هذه الموضوعات في ظل الحِكم الكلاسيكية السائرة ، او بالروح الكلاسيكية في الاخـــلاق والتأملات .

وكانت الفضائل والرذائل التي حرصوا على شرحها وبسطها للناس وتبيان منافعها او اضرارهـــا ، تنعكس على شخصية المؤلف ، فتتأثر بنظرته الخاصة اليها ، منحيّة جانبـــاً نظرة المجتمع الذي كان يتقلب فيه . أما شئون المجتمع المختلفة ، من عادات ونظم وتقاليد، فقد كانت لا تلقى منهم إلا بعض العناية لأنهم كانوا ما يزالون يعيشون تحت وطأة النزعة الفردية العنيفة التي خلفها عصر النهضة في نفوس ابنـاء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد كان لعصر النهضة أثر آخر في أساليبهم يتضح لنـــا من توافرهم على الأدب الكلاسيكي ، الاغريقي واللاتيني ، وحرصهم على ان يقتبسوا منه ، وعلى ان يشيروا الى احداثه وشخصياته ، بمزيد من العناية والتوقير .

٥ ـ مقالة المجلات في القرن الثامن عشر

كانت المقالة في القرن السابع عشر ، فناً ثانوياً يعيش على
امش الفنون الأخرى كالشعر والمسرحية . وقد صدّ عنهـــا
كثر الكتّاب في هذا القرن . اما هؤلاء الذين عنوا بها ، فلم
فرغوا لكتابتها كل التفرغ ، بل كانوا يتخذون منهـا وسيلة
لتسلية ولتزجية الوقت في فترات الدعة والفراغ . وقد كان
قراؤها كذلك أقلية ضئيلة ، بالنسبة الى مجموع القراء ، وكانوا
من الطبقة الممتازة التي تعنى بالأدب عناية خاصة .

اما في القرن الثامن عشر ، فقد انبرى لكتابتها اعلام
الكتّاب،وتفرغوا لها واعتبروها فناً قائماً بذاته حسب الكاتب
ان ينبغ فيه حتى تكتب له الشهرة والخلود. وقد لحقها تطور
كبير في المحتوى ، تبعاً لذلك ، فلم تقتصر على التأملات الذاتية
في بعض المشكلات التي تعرض للانسان في حياته الخاصة ، او
في علاقته بالمجتمع،بل اتجهت نحو تحليل مظاهر الحياة المعاصرة،
وتناولها بالنقد والتجريح . كما طرأ عليهـــا تغير من حيث
الاسلوب ، فاصطُنع لهـــا أسلوب انشائي جديد ، وطرق
مستحدثة في العرض والتحليل ، حتى نستطيع ان نقول انها
ت في هذا القرن فناً أدبياً جديداً .

ويعزى الفضل في هذا التطور الذي لحقها، الى جهود كاتبين

برزا في هذه الفترة ، هما رتشارد ستيل (١٦٧٢ – ١٧٢٩) وصديقه جوزيف اديسون (١٦٧٢ – ١٧١٩) . وقد توفرت لديهما الموهبة المبدعة ، وأتيح لهما من الظروف ما ساعدهما على ابراز هذه الموهبة ، وتعهدها بالصقل والتهذيب .

وكان أعظم هذه الظروف أثراً في تطور المقالة على النحو الذي ألمحنا اليه تطور المجلات الأدبية في ذلـــك الحين . ففي السنوات القليلة التي عقبت ثورة ١٦٨٨ ، وما رافقها من ازدياد عناية الناس بالشئون السياسية، وتراخي قبضة الرقابة على الرأي العام ، أخذت الصحف الحديثة تظهر على الناس ، في اعـداد وفيرة . وخطر لبعض الكتّاب ان يصدروا بعض الصحف التي لا تقتصر على الأخبار والسياسة فحسب ، بل تتعدى ذلك الى بعض الشئون العامة التي كانت تشغل اذهان الناس آنذاك ، كالأزياء والادب والاخبار الاجتماعية .

وقد استهل هذا العمل ورّاق يدعى جون دنتن سنة ١٦٩١ نشرة دعاها «الصحيفة الأثينية » (the Athenian Gazette) ثم دعاها «عطارد أثينا » (Athenian Mercury) وكانت غايته وغاية المحررين الذين أعانوه على اصدارها ، نشر بعض الاخبار والمعارف العامة موشاة بالطرائف والأحـاديث المسلية ، على طريقة السؤال والجواب . فكانوا يتلقون من قرائهم الاسئلة التي تدور حول شتى انواع المعارف ، ويتولون

الاجابة عليها . واستمرت هذه النشرة ست سنوات ،وكانت اول صحيفة انكليزية تخرج عن نطاق السياسة وتتولى نشر الاخبار والموضوعات والابواب المتنوعة .

وبعد احتجابها بقليل، اصدر الكاتب الساخر دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) مجلة دعاها « مجلة اسبوعية خاصة بشؤون فرنسا » . وقد استمرت منذ سنة ١٧٠٤ حتى سنة ١٧١٣ ؛ وكانت غايته الاولى من اصدارها،خلق وسيلة تساعده على بث آرائه الخاصة في الشئون العامة ، وخاصة ذلك الصراع الذي كانت تدور رحاه مع فرنسا آنذاك ، وتطور التجارة الانكليزية . ولذا كان كل عدد منها يحتوي مقالة يدبجها هو ، حول احد هذه الشئون .

وقد دفعه حرصه على ارضاء ذوق القارىء ، وملاقاته في منتصف الطريق ، الى ان يثير بعض المشكلات الهامة، بطريقته الفكهة المعروفة . فأخذ ينشر بعض النتف والشذرات تحت عنوان « نصيحة من نادي الفضائح » ، وكانت تدور حول الازياء والعادات والاخلاق والذوق العام وما الى ذلك من موضوعات ، ويدعي انها صادرة عن اقلام اعضاء هذا النادي المزعوم .

وقد كان لهاتين الصحيفتين فضل في لفت نظر القارىء الانكليزي الى فوائد المجلات الادبية والاجتماعية، إلا ان اثرهما في

تطوير فن المقالة كان ضئيلاً . ويعزى هذا التطور في المقـــام الاول الى مجلتين ظهرتا خلال هذه الفترة ، واتجهتا الى الذوق الانكليزي المحدث الذي تربى في صحيفتي دنتون وديفو .

ففي سنة ١٧٠٩ ، حـين كانت صحيفة ديفو في ربيع العمر ، ظهر العدد الأول من صحيفة الثرثار (the Tatler) ، الـــتي اصدرها باسم مستعار، رتشارد ستيل ، محرر الجريدة الرسمية، واحد اعضاء حزب الاحرار .وقد اعلن في العدد الاول منها، ان الصحيفة ستنقسم الى بابين،احدهما للاخبار والثاني للمقالات. وقد اضطلع ستيل بتحريرهـا منذ البداية ، إلا انه ابتداء من العدد الثامن عشر ، اخذ يتلقى معونة من زميله وصديقه في الدراسة والحزب ، جوزف اديسون . وقد ظـــل يساعده في التحرير حتى احتجاب المجلة سنة ١٧١١ ، على كـره من القراء واسف شديد .

ولكن لم يخلُ الميدان من نشاطهما المقالي سوى شهرين ،اذ اصدرا مجلتهما الثانية«المراقب »(the Spectator) ، وكانت تشبه الاولى في مظهرها الخارجي ،ولكنها كانت تصدر يومياً، خالية من الاخبار اليومية العابرة ، وكانت محتوياتها لا تزيد على مقالة متوجة بعبارة لاتينية او يونانية، وبعض الاعلانات .

وفي هاتين المجلتين ظهرت المقالة الحديثة،مقالة القرن الثامن عشر ، التي اختلفت عن المقالة القديمة في اكثر من خاصة . فقد

كانت هـــذه تنشر في المجلات لجمهور متبـاين الأذواق مختلف الاتجاهات ، ولذا كان كتّابها يحاولون دوماً ان يضفوا عليهـا صفة الجماعية ، لـكي تلائم اكثر الاذواق . وكانت موضوعاتها تستمد من الأحـداث اليومية ومن التطورات الاجتماعية التي كانت تطرأ على المجتمع آناً بعد آن .

وكان من نتيجة نشرها في المجلات ليطلع عليها الجمهور، ان اتجهت اتجاهاً اصلاحياً تهذيبياً . وقد نوّه ستيل واديسون في اعداد كثيرة بهذه الغاية الاصلاحية ، التي كانا يشدّان اليهـا ، وبأنهما انما وقفا قلميهما على خدمة المجتمع ومكافحة الآفات الضارة والخرافات الشائعة بين الناس . وقد كان هذا الموقف طبيعياً من كلا الكاتبين ، اذ كان تيـــار الاصلاح الاجتماعي في انكلترا آنذاك ، ينحدر بقوة واندفاع عقب تلك الحرية التي رتع في ظلالها الشعب الانكليزي حيناً بعد عودة الملكية ، والتي كان من اسبابها او نتائجها ، ظهور الطبقة الوسطى واضطرابهـا في لجة الحياة العامة .

وثمة عـــامل آخر ساعد على تطور المقالة في هذا القرن، وهو انتشار المقاهي التي كانت بمثابة نوادٍ يلتقي فيها جمع وفير من ابنـاء الشعب ، فيتناقشون في مختلف شئون الحيـــاة من اجتماع وادب وسياسة واقتصاد . وقد عودتهم تلك المناقشات ان يستقلوا بتفكيرهم ، وان يكونوا آراءهم الخاصة في مختلف

الشؤون التي تعرض لهم . واتجهوا نتيجة لذلك ، الى التبسط في الحديث والترخص في اللغة وأسلوب المحاورة. وكانت مقالة المجلات ، بحكم طبيعتها ونوعها، التعبير الصحيح عن هذا الاتجاه من مختلف نواحيه الفكرية والادبية . وكان كتابها يؤمون هذه المقاهي ، ويشاركون في مثل تلك المناقشات، ليتصيدوا النماذج الحية ، والصور الفكهة التي ينقلونها الى صحفهم بعد ان يجيلوا فيها اقلامهم بالتشويه والمسخ ، ويعرضونها على القراء عرضاً ينضح بالسخرية المرة والنقد اللاذع ، بقصد اصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج من اخلاق الناس وعاداتهم .

وقد وجد كتّاب هذه المقالات ، ان مقالة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بحدودها الضيقة الصلبة التي رسمها مونتين، ثم قفتى على آثاره فيها باكون وكاولي ، لم تعد مطية ذلولاً لهذه النزعة الاصلاحية القوية ، ولم تعد أداة صالحة لتربية الذوق وتقويم الاخلاق وخضد شوكة النزوات . ولذا حاولوا ان يحتفظوا بقالبها العام في حدود ضيقة ، وجدّوا في خلق نوع جديد منها ، يحتمل اغراضهم المستحدثة ، ويصلح لقرائهم على اختلاف اذواقهم ومشاربهم .

وكان من أهم ما ادخلوه الى مقالتهم الحديثة هذه ، الصور الشخصية ، متأثرين بذلك التقليد الذي تركته شخصيات ثيوفراسطوس في الادب الاوروبي عامة ، منذ بدء النهضة ،

وفي الادب الانكليزي خاصة منذ اوائل القرن السابع عشر . وكان الكتّاب الانكليز يكتمون اعجابهم الشديد بهذه الصور الحية ، ويودون لو استطاعوا ان يتأثروها في مقالاتهم ، حتى خرج عليهم الكاتب الفرنسي لابروبير بنماذجه التي ترجمت الى الانكليزية سنة ١٦٩٩ ، فاستعلن هذا الاعجاب المستسر ، وظهر تأثيره في مقالاتهم بعد بضع سنوات . وقد افاد هؤلاء الكتاب ايضاً من اسلوب الرسائل الادبية ، واستعانوا ببعض الحكايات والمواعظ القصصية ذوات المغزى ، التي وقعوا عليها في الآداب الكلاسيكية ، من غربية وشرقية .

٦ – خصائص هذه المقالة في المحتوى والصورة

ولا بد لنا من ان نعرض لخصائص هذه المقالة بشيء من الاسهاب ، لأن كتّابنا المعاصرين تأثروا بهـا تأثراً بيّناً ، ضاربين صفحاً عن مقالات مونتين وباكون ، شأنهم في ذلك شأن المقاليين الاوروبيين في القرنين التاسع عشر والعشرين .

اما من حيث المحتوى ، فقد كانت هـذه المقالات تدور حول الموضوعات العامة التي تتصف بصفة الاستمرار والثبات ، وتعرض للمجتمع في مختلف مراحـل تطوره – ومنها تلك الموضوعات التي تدور حول بعض الصفات الخلقية كالتواضع

والحلم والسماحة والكرم والغرور والجشع – او حول بعض العلاقات الاجتماعية ، كالصداقة ، والزواج ، وادب الحديث ، وحسن العشرة والتربية الصالحة وما الى ذلك . او حول الموضوعات الطارئة التي تجدّ في المجتمع عند تغير بعض العادات والتقاليد والازياء ، كالحفلات التنكرية والمبارزات واستنشاق السعوط وتطور ازياء النساء والرجال وشيوع قراءة الصحف ، وما يتصل بكل ذلك من اسباب .

واما من حيث الصورة ، او الاطار العام الذي كان ينتظم المقالة ، فقد ظهرت الانواع التالية :

١ – المقالة الاجتماعية : وكانوا ينهجون في كتابتها مناهج مختلفة ؛ منها اسلوب العرض المسهب الذي كان يقوم على التمثل والاستشهاد من الادب ، قديمه وحديثه ، ومن الكتب المقدسة . والاسلوب الموجز الذي كان يكتفي بتخطيط الموضوع ، بصورة عامة ، دون الالتفات الى التفاصيل والشواهد .

٢ – المقالة النقدية : وكانت تدور حول الموضوعات الادبية ، او تتناول بعض الكتب بالنقد والتحليل ، وكانوا يعمدون فيها الى ايراد الشواهد الكثيرة ، ويعنون في الشرح والتفسير .

٣ – الصور الشخصية : وقد تأثروا فيها بأسلوب لابروبير

كما ذكرنا آنفاً، وتجلى اثره فيهم في الحوار والالتفات والوصف والقصص .

٤ ـ الاستشهاد بالحوادث الطارئة : وذلك لتوضيح بعض الصفات الخلقية او نقد بعض العيوب الاجتماعية .

٥ ـ مقالات الرسائل : وكانوا يستقون مادتها من رسائل القراء ، او من رسائل من نسج خيالهم ، يجعلون وكدهم ان يستغلوها خير استغلال لتصوير اتجاههم والتعبير عن آرائهم فيما يحيط بهم من مشكلات المجتمع .

٦ ـ المقالة القصصية : وكانوا يسردون فيها بعض القصص والحكايات الحقيقية او المخترعة ، ليصوروا بعض العادات او ليرسموا صورة للمجتمع الانكليزي في عصرهم .

وبعد فهذه لمحة موجزة عن المقالة الحديثة التي نشأت وترعرعت في المجلات التي ظهرت في اوائل القرن الثامن عشر . ولم تأت سنة ١٧١٢ ، حين توقفت مجلة «المراقب» (the Spectator) عن الصدور ، حتى كانت هذه المقالة قد استوت على ساقها ، ناضجة مكتملة . ومنذ ذلك الحين ، ولفترة استمرت قرناً من الزمن ، والمقالة الانكليزية تدور في فلك ستيل واديسون .

وقد اشتهر من كتّابها بعدهما ، صمويل جونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) وأولفر غولدسمث (١٧٢٨ — ١٧٧٤) . اما الأول

فقد قدم نفسه للقراء، حين أخذ ينشر مقالاته في مجلة «السائح» (the Rambler) . وحين احتجبت هذه المجلة ، غادرها الى مجلات أخرى . ومقالته لا تخرج من حيث الصنعة الفنية ، عن التقليد الادبي الذي ارساه المقاليون الاول في هذا القرن ، وقد وقفها على النقد والاصلاح. وكان في اسلوبه الانشائي، وطريقته في تلمس الموضوع وعرضه ، تلميذاً مخلصاً لستيل واديسون ، الا انه يباينهما في ناحيتين ، **الاولى** : انه كان يفضل معالجة الموضوعات الدينية والابحاث الاخلاقية الجدية، على صور الحياة اليومية ، **والثانية** : انه كان لا يترخص في لغته ولا يتدنى في بيانه ، بل كان يحتفل باسلوبه فيعنى باختيار ألفاظه ، وبتوفير القيم الزخرفية والبديعية لعباراته .

اما غولدسمث فقد برزت مواهبه في كتابة المقالة ، حوالي العقد السادس من القرن نفسه . واستهل عمله الادبي بالنشر في المجلات ، الا انه اشتهر بمجموعة من المقالات كتبها على صورة رسائل وأجراها على لسان صيني متفلسف ، جاء الى انكلترا سائحاً . وقد نفذ منها الى نقد الحياة الاجتماعية في انكلترا والسخرية من بعض العادات الشائنة والتقاليد السخيفة ، ونشرها في كتاب سماه « المواطن العالمي » . وقد تأثر فيها بأسلوب الرسائل الذي كان شائعاً في انكلترا آنذاك ، نتيجة لنشر « الرسائل الفارسية» لمونتسكيو في ترجمتها الانكليزية.

واختار لنفسه اسلوب الفكاهة والسخرية الاجتماعية ، الا انه لم يهجر الموضوعات الجدية هجراً تاماً .

واستأثر هـــذا التقليد الأدبي الذي ارسى قواعده هؤلاء الكتّاب الاعلام بالمجلات الانكليزية سحابة القرن الثامن عشر، واستمر فيها حتى مطلع القرن التاسع عشر .

٧ - المقالة في القرن التاسع عشر

عرف هذا القرن نخبة من المقاليين الذين تنكروا لمقالة القرن الثامن عشر ، كما ارسيت قواعدها على ايدي ستيل واديسون ، وأحلّوا محلها نوعـــاً جديداً من المقالة ، ظل متحكماً بالتقليد الأدبي حتى اليوم . ومن اشهر هـــؤلاء الكتّاب شارلس لام ولي هنت وهزلت ودي كونسي . وقد فارقت مقالة هؤلاء مقالة القرن السابق ، في اعتبارات عدة ، نذكر منها ما يلي :

(١) اتساع نطاق الموضوعات التي اصبحت المقـــالة تدور حولها . فلم تعد مقصورة على حياة المدن ، وازياء المجتمـــع وصغاراته ، وعادات السلوك والاخلاق ، بل تناولت مختلف الموضوعات وصار الكاتب يكتب في الموضوع الذي يروقه ، واصبحت موضوعاته تعتمد على مـــدى اتساع ثقافته ، وعلى

مدى تنوع اتصاله بالحياة العامة . فلام مثلا كتب عن حياته المدرسية ، وعن اعماله اليومية ، وعن نزهاته ومغامراته فيها ، وعن اصدقائه وافراد عائلته ، وعن الأشياء التي يحبهـــا او يمقتهـــا . ولي هنت كان يكتب عن مطالعاته الواسعة ، وعن تأمـــلاته واحلام يقظته . وهو يجلس الى جانب المدفأة في الشتاء ، وعن الشخصيات الطريفة التي كان يقابلها في الحياة ، وعن التجارب التي يتمرس بها. وهزلت كان يحوّم حول كتبه، او يستعيد ذكرياته عن اولى مقابلاته للشعراء الذين نالوا حظاً كبيراً من الشهرة فيما بعد ، او يسجل الافكار التي كانت تجول في خاطره اثنـــاء تجواله وحيداً في الريف ، او يتحدث عن المتعة التي يجدها اثناء انزوائه في احدى الحانات المسائية ، او يتحدث عن الممثلين ، وعن التصوير والنحت وما الى ذلك . وكان يطيب لدي كونسي ان يتحدث عن ممارفه ، او يستعيد تفاصيل بعض الاحلام المزعجة ، التي يقع تحت كابوسها . وكان اكثر هؤلاء الكتّاب يعيشون في لندن ، ولذا نراهم يعنون بالحياة الاجتماعية فيها، إلا انهم كانوا يقفون عند بعض مظاهرها الثانوية التافهة ويتحدثون عنها حديث المنتشي المستمتع .

(٢) ظهور شخصية الكاتب ، واضحـــة جلية ، دون التوقيع باسم مستعـــار ، او التستر خلف شخصية مخترعة كشخصية الصيني الفيلسوف . وحتى في الحـالات التي كان يضطر فيها الكاتب الى إخفـــاء اسمه ، كانت شخصيته تبدو

جلية من خلال كتابته ، فلا يحجبها ذلك القناع الشفاف الذي كان يتقنع به مضطراً . وقد اهمل الكتّاب بعض الاساليب التقليدية في صياغة المقالة وتوجيهها ، فكانوا لا يعنون بحياة النوادي والمقاهي ، او برسائل القراء ، او بالرؤى والحكايات ذوات المغزى ، او بالشخصيات الكلاسيكية الحقيقية او المخترعة . ثم انهم انصرفوا عن الاستشهاد بالتاريخ القديم ، وشوارد الحِكم وجوامع الكلم ، وآثروا استقاء شواهدهم من تجاربهم الحية ، او من تجارب اصدقائهم ، ومن الاخبار السيارة ، في الادب والاجتماع بأسلوب طبعي بسيط ، خالٍ من الكلفة والتصنع والافتعال .

ولم يكن همّ هؤلاء الكتّاب المحدثين ان يسوقوا مقالاتهم للعظة والاصلاح ، شأن كتّاب القرن الماضي . بل كانت مقالاتهم تعبيراً حراً طليقاً عن الذات ، يخلو من كل توجيه او التزام . والحقيقة ان هذا العكوف على الذات ، والاهتمام بتجليتها في الادب ، هو أبرز خاصة تميز بها ادب القرن التاسع عشر ، عصر الرومانطيقية .

(٣) وقد ازداد طول هذه المقالة ، ازدياداً واضحاً ، وذلك بسبب تغير نظام المجلات ، واعتياد القراء قراءة الابحاث الطويلة بعد أن ألفوا المجلات ، مما فسح المجال امام الكتّاب لعرض آرائهم وصورهم في اسهاب لم تعرفه مقالة القرن الماضي

الـتي كانت تكتفي بعرض الصورة القصيرة ، وبتصوير بعض جوانب الموضوع .

وهذه التغيرات الواضحة التي لحقت المقالة الحديثة ، تعود الى اسباب عديدة ، نستطيع ان نجملها فيما يلي :

(١) طغيان موجة الرومانطيقية، التي غيرت مُثُل الناس وتقاليدهم في الادب والحيـــاة ، فاستقطبوا حـــول ذواتهم ونضوا عن انفسهم اسمال الكلاسيكية، وجدّوا في البحث عن وسائل جديدة ، لاكتشاف ذواتهم والتعبير عنهـا . وقد تأثر المقاليون بطغيان هذه الموجة ، شأنهم في ذلك شأن الشعراء ، ولذا التقت المقالة الحديثة بالشعر الحديث في اكثر من خاصة. وهذه التيارات الجديدة في حياة الناس واذواقهم ومُثُلهم، جرفت بعض اعلام الكتّاب ، فطوّروا المقالة حتى اصبحت تحتمـــل هذه المثل الجديدة ، وكان نجاحهم في ذلك ، خـــير مشجع لغيرهم من الكتّاب على السير وفق هذا النهج الجديد . وعلى هذا ، لا يقــلّ اثر لام ولي هنت وهزلت ، في الحركة الادبية الجديدة ، عن اثر زمـــلائهم من الشعراء امثال وردزورث وبايرون وكيتس .

وقـــد كان من شأن هؤلاء الكتّاب ، الذين التفوا حول ذواتهم ، ان يعودوا الى الكاتب المقالي الذاتي الاول ، مونتين ، وبهذا استردت المقالة المونتينية مكانتهـــا في نفوس الادباء ،

واصبحت دستور هذه الفئة الجديدة ، يصبون على غرارهـــا ويستشهدون بها ، ويذكرون صاحبها بالتقدير والاعجاب .

(٢) ظهور المجلة الادبية : وقد كان لظهور المجلة الأدبية في هذا القرن ، اثر كبير في تطور المقالة الحديثة . فقـــد كانت المجلة القديمة ، التي سارت على نهج مجلتي ستيـــل واديسون ، تتسع لأغراض شتى وموضوعات متنوعة ، ولذا كان نصيب المقالة فيها ضئيلاً . وكان لمجلات الأحزاب شأن كبير في هذا التطور . فمجلة (Edinburgh Review) التي صدرت سنة ١٨٠٢ ، كانت منبراً لأدباء حزب الأحرار . ومجلة (Quarterly Review) التي صدرت سنة ١٨٠٩ ، كانت تنطق بلسان ادباء المحافظين . وكانت المنافسة بينهما على أشدها . ولهذا كانت كل منهما تبذل المال بسخاء ، لاجتذاب كبار الكتّاب اليها .

ولكن المجلة الادبية الاولى ، التي صدرت في هذا العهد ، كانت مجلة «المتأمل» (Reflector ، (١٨١١ – ١٨١٢) ، للي هنت . وقد قدمت خدمات جلـّى للحركة الأدبية الجديدة ، ولكن عمرها كان قصيراً ، لأسباب كثيرة اهمها الحاجـــة المادية . ثم توالى صدور المجلات الادبية ، وتولى تحريرها كبار كتاب العصر ، وكانت خير تعبير عن الروح الجديدة الـــتي شملت الادب والحياة .

وقد تركت هذه المجلات ، آثاراً بارزة في المقالة الجديدة ،

اذ استغنت عن المادة الصحفية التي كانت تضطر اليها المجـلات القديمة ، وبهذا فسحت المجـــال امام كتّاب المقالات لـكي يعالجوا موضوعاتهم بإسهاب وإفاضة ، اذ بينما كانت المجلةالقديمة تخص المقالة بصفحة او صفحتين ، اصبحت المجلة الجديدة تفتح صدرها للمقالة ، حتى ان بعض المقالات كانت تسوّد ما يقرب من عشرين صفحة . وبهذا ازداد حجم المقالة الحديثة ، واتسع نطاق موضوعاتها تبعاً لذلك .

ومن ناحية اخرى ، نجد ان المجـــلة الجديدة تركت اثراً كبيراً في المقالة الحديثة ، وذلك بحرصها على اجتذاب اعـلام الكتّاب ، ونفحهم المكافآت الضخمة وتركها الحريـــة لهم ليعالجوا الموضوعات التي يريدون . هذا فصلاً عن ان سير هذه المجلات نحو التجديد بخطى حثيثة ، وحرصها على ان تأتي بكل جديـــد مفيد ، شجع الكتّاب على ان يجربوا اقلامهم في موضوعات طريفـة لم تخطر لأسلافهم من كتّاب القرن الثامن عشر على بال . وحسب هذه المجلات فخراً انها قدمت للأدب الانكليزي ، بل للأدب العالمي ، مجموعة من اعـلام الكتّاب كان في طليعتهم لام وهزلت ودي كونسي ولي هنت ، الذين عرفوا بتأثرهم بالمقالة القديمة ، وبأثرهم الكبير في خلق المقالة الحديثة . ثم بخلود آثارهم الادبية وبقائها على الزمن . وكان منهم مجموعة اشتهرت بتميزها في الفنون الادبية الاخرى ، وخاصة القصة ، ومنهم دكنز وثكري وستيفنسون .

٨ – المقالة الحديثة

كان روبرت لويس ستيفنسون آخر كتّاب المقالة العظام في القرن التاسع عشر . إلا ان هـــذا الفن الأدبي لم يفقد روعته وسحره عند الكتّاب المحدثين ، ولكنه انطبع بما تجلى في هذا القرن من ميل الى التخصص، بعد اتساع نطاق العلوم والفنون؛ وأخذت المقالة الذاتية تفقد روعتها تدريجاً نظراً لطغيان النزعة العلمية ، وأصبح هم الكتّاب ان يقدموا لقرائهم مادة طريفة، تنم عن تفكير عميق ، وطول تدبر وتمعن ، مجلوة بأسلوب أدبي متقن . ولذا غلب فيها طابع الدرس والتمحيص على طابـــع التعبـــير الذاتي الحر الطليق ، وصار الكتّاب يتنافسون على التعمق في دراسة الموضوعات التي يعرضون لها ، والتعبير عنهـا بأسلوب أدبي رصين .

إلا ان فناً ادبياً جديداً قديماً ، أخذ يزاحم المقالة، ويحاول ان يجليها عن مكانتها المرموقة في الصحف والمجلات. وهذا الفن هو الأقصوصة ، التي تطورت في القرن التاسع عشر، من الحكاية الساذجة البسيطة ، التي تخلو من الصنعة الفنية المتقنة ، الى عمل أدبي صرف له شروط دقيقة محكمة ، ويحتاج كاتبه الى فطنة

وبراعة في اختيار المادة واخراجها . والأقصوصة من بين ألوان الكتابة النثرية القصيرة ، هي الزي الأدبي المفضل في النصف الأول من هذا القرن . وقد اشتهر من كتّاب المقالة الشخصية في هذا القرن ماكس بيربوم وادوارد لوكاس وهيلير بلوك وجون جولزوردي ووليم بتلر ييتس وجوزيف كنراد وستيفان ليكوك . واشتهر في كتابة المقالة النقدية والعلمية والفلسفية ، فضلاً عمن ذكرنا ، جورج برنارد شو ، وجورج مور ، وهيو ولبول ، و. ت. س. اليوت ، و هـ . ج. ولز ، وارنولد بنيت ، وبرتراند رسل ، وسير اوليفر لودج وسواهم .

وقد شهدت المقالة ازدهاراً عظيماً في اميركا ، وخاصة في وصف الطبيعة وفي النقد الأدبي . وشهرتها في سائر بلدان العالم لا تقل عن ذلك ، لأنها اصبحت الوسيلة السريعة الاولى للاتصال بالقراء ، وتزويدهم بالمعلومات ، وإثارة افكارهم وعواطفهم ، وذلك في الصحف السيارة وفي المجلات . وهذا مما يجعل امر حصرها واستقصاء انواعها وأسماء كتّابها في هـــذا البحث الموجز ، من الصعوبة بمكان عظيم .

٩ ـ المقالة في الادب العربي الحديث

يرتبط تاريخ المقالة في أدبنا الحديث بتاريخ الصحافة

ارتباطاً وثيقاً . فالمقالة بنوعيهـا الذاتي والموضوعي ، لم تظهر في ادبنا ، اول ما ظهرت ، على انها فن مستقل شأنها في فرنسا وانكلترا . بل نشأت في حضن الصحافة ، واستمدت منهـا نسمة الحياة منذ ظهورها ، وخدمت اغراضها المختلفة ، وحملت الى قرائها آراء محرريها وكتابها . ولذا كان لزامـاً علينا ان نبحث عن تطور المقالة في الصحف اليومية اولاً ، ثم في المجلات ، مع تقدير الفوارق الهامة بين انواع المقالات التي تكتب للصحف وتلك التي تكتب للمجلات .

اذا استعرضنا المقالات الـتي ظهرت في الصحف المصرية ، خلال النهضة ، نجد انها مرت في اطوار اربعة :

الطور الاول : طور المدرسة الصحفية الاولى ، ويمثلهـا كتّاب الصحف الرسمية ، التي اصدرتها الدولة او أعانت على اصدارها . ويمتد هـذا الطور ، حتى الثورة العرابية . ومن اشهر الكتّاب الذين شاركوا في تحرير صحف هـذه الفترة : رفاعة الطهطاوي وعبدالله ابو السعود وميخائيـل عبد السيد ومحمد انسي وسليم عنحوري . وقد نشروا مقالاتهم في الوقائع المصرية ووادي النيل والوطن وروضة الاخبار ومرآة الشرق على التوالي . وقد ظهرت المقالة على ايديهم ، بصورة بدائيـة فجة ، وكان اسلوبهم اقرب الى اساليب عصر الانحطاط ، فهو يزهو بالسجع الغث وبالمحسنات البديعية والزخارف المتكلفـة

المجوجة . وقد كانت الشؤون السياسية هي الموضوع الاول لهذه المقالات ، ولكن الكتّاب كانوا يعرضون احياناً لبعض الشؤون الاجتماعية والتعليمية .

الطور الثاني : وفيه ظهرت المدرسة الصحفية الثانية،التي تأثرت بدعوة جمال الدين الافغاني ، وبنشأة الحزب الوطني الاول ، وبروح الثورة والاندفاع،التي سبقت الحركة العرابية. وكان للمدرسة السورية المتمصرة يد لا تنكر على تطوير المقالة في هذه المرحلة ي حياتها . وقد برز في هذه المدرسة عدد من الشخصيات التي ارتبط تاريخها بتاريخ الكفاح الوطني في مصر ، ومنهم اديب اسحق وسليم النقاش وسعيد البستاني وعبدالله نديم ومحمد عبده وابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال وعبد الرحمن الكواكبي وبشارة تقلا . وقد تحللت هذه المدرسة من قيود السجع ، الى حد بعيد، واخذت تقترب من الشعب شيئاً فشيئاً ، وذلك بتأثير الشيخ محمد عبده وحركته الاصلاحية . ومن اهم الصحف التي كتبوا فيها : الاهرام ومصر رالتجارة والفلاح والحقوق .

الطور الثالث : وفيه ظهرت طلائع المدرسة الصحفية الحديثة ، ومنهم علي يوسف ومصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وولي الدين يكن وسليم سركيس ومحمد رشيد رضا وخليل مطران ونجيب الحداد وامين الحداد ولطفي السيد

ومحمد مسعود . وهـــذه المدرسة نشأت في عهد الاحتلال ، وتأثرت بالنزعات الوطنية والاصلاحية التي سبقته وبالنزعات الحزبية التي تلته . اذ كان من نتيجة الاحتلال الانكليزي لمصر ان ظهرت الاحزاب السياسية ، لتنظم الكفاح ضد الانكليز والاتراك ، وفقاً لفلسفتها ومثلها الخاصة . فكان علي يوسف يمثل حزب الاصلاح ، ويحمّل جريدة «المؤيد» رسالته . وكان مصطفى كامل يمثل الحزب الوطني وينشر مبادئه على صفحات «اللواء». وكان لطفي السيد يمثل حزب الامة الذي كان يضم مثقفي ذلك العصر ، وينشر افكاره السياسية والثقافية على صفحـــات « الجريدة » . والحقيقة ان اكثر هذه الصحف اتجه اتجاهـــاً سياسياً قوياً ، فكانت المقالة فيه محدودة بحـــدود الموضوع ، وهي اقرب الى الخطبة الحماسية منها الى المقالة الهادئة المتزنة . اما « الجريدة » ، فقد تميزت في ذلك الحين ، بأنها تحمل دعوة التجديد والبعث ، على اساس العلم الحديث ؛ ولذا عنيت بشؤون التربية والتعليم ، وبشؤون السياسية النظرية ، وكانت خـــير مجال لتمثيل النزعات الادبية الحديثة – نزعات المطربشين – وقد ربّت عـدداً من الكتّاب ، الذين قادوا الحركة الادبية والاجتماعية فيما بعد ، ومنهم : عبد الرحمن شكري وعبدالحميد حمدي وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز البشري ومحمـــد السباعي وعبدالسلام ذهني وابراهيم رمزي ومحمد حسين هيكل

وطه حسين وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقـاد وعزيز خانكي ومصطفى عبد الرزاق وسلامـه موسى وتوفيق دياب . ومن السيدات : لبيبة هاشم ونبوية موسى وملك حفني ناصف . وهؤلاء في الحقيقة هم اساطين الحركة الادبية الحديثة التي ظهرت بين الحربين، وقد توزعوا شؤون الكتابة فيما بينهم، فكان منهم الناقدوالمؤرخ والمربي والمتفلسف والخطيب والسياسي والقاصّ . ومن هنا ندرك اهمية الدور الذي لعبه لطفي السيد وجريدته ، حتى اصبح الباحثون يدعونه : استاذ الجيل(١).

وقد خطت هذهالمدرسة بالأسلوب الأدبي خطوات جبارة، فخلصته من قيود الصنعة والسجع ، واطلقته حراً بسيطـــاً ، حمولته من الأفكار والمعاني تفوق حمولته من الزخرف والعبث البديعي .

الطور الرابع : المدرسة الحديثة ـ وتبدأ بالحرب العظمى الاولى وما تلاها من احداث جسام ، قلبت الحيـــاة المصرية رأساً على عقب ، وصفت جوهر الشخصية المصرية حتى ظهرت

---

(١) لقد اتيح لي مراجعة جريدة «الجريدة» ، وقراءة اكثر مقالاتهـا حين كنت أعد مواد الجزء السادس من كتاب «ادب المقالة الصحفية في مصر» للدكتور عبد اللطيف حمزة . وقد قسمتها آنذاك الى موضوعات واستخرجت اسماء الكتاب والشعراء ، فازددت اقتناعاً بأهمية الدور الثقافي الذي نهض به احمد لطفي السيد .

على حقيقتها . وأهم هذه الأحداث الثورة المصرية الأولى سنة ١٩١٩ . وقد ظهر في هذه الفترة من الصحف التي تركت اثرها في الحياة الادبية عامة ، وفي المقالة خاصة : جريدة السفور لعبد الحميد حمدي (١٩١٥) ، وقد اجتذبت اليها اكثر كتّاب «الجريدة»،و«الوجديات» لمحمد فريد وجدي (١٩٢١) ثم صحف الثورة وما بعدها ، وخاصة صحف الاحزاب ومنها «الاستقلال» لمحمود عزمي (١٩٢١) ، وقد شارك في تحريرها الدكتور طه حسين ، و « النهضة المصرية » (١٩٢٢) لعبدالحميد الحميد حمدي ، و «السياسة» (١٩٢٢) لمحمد حسين هيكل ، وكانت لسان حال حزب الاحرار الدستوريين ، و « البلاغ » (١٩٢٣) لعبد القادر حمزه ، وكانت وفدية ، و « كوكب الشرق » (٩١٢٤) لأحمد حافظ عوض ، وكانت وفدية ايضاً، ايضاً ، و « الاخبار » (١٩٢٥) لأمين الرافعي ، و«الاسبوع» (١٩٢٦) لابراهيم عبد القادر المازني. ثم ظهرت الصحف الحزبية والمستقلة الحديثة كـ «المصري» و «صوت الأمة» و«الدستور» و«الأساس» و «اخبار اليوم» و «الأخبار» ، وكلها سارت على التقليد الصحفي الذي ارسى قواعده رجال الصحافة الحزبية في طورها الاول ، مع بعض التجديد الذي اقتضاه اتساع الثقافة وتدرب الكتّاب واستحصاد ملكاتهم بالممارسة ، واتساع شؤون الحياة السياسية بعد معاهدة ١٩٣٦ .

وكان اثر هذه الصحف في المقالة محصوراً في نطاق المقالة

السياسية ، او افتتاحية التحرير . اما اثرها الأدبي فقد كان ضعيفاً ؛ الا انها قدمت للقارىء بعض كبار الكتّاب، ومنهم محمد تيمور ومحمود تيمور اللذان ظهرا على صفحات «السفور»، والمازني الذي ظهر في تحرير «الاهرام» و«الافكار» و«الرجاء» و «البلاغ» ، وهيكل محرر « السياسة اليومية » و « السياسة الاسبوعية » .

وامتـازت المقالة في هذا الطور بالتركيز والدقة العلمية ، والميل الى بث الثقافة العامة لتربية اذواق الناس وعقولهم. اما اسلوبها ، فهو الاسلوب الأدبي الحديث الذي عُرف به محررو هذه الصحف ، وقد كان منهم نفر من اقطاب المدرسة الادبية الحديثة .

إلا ان الصحف اليومية بطبيعتها ، توجه عنايتها في المقام الأول الى شؤون السياسة، ولذا نجد أن المقالة التي ظهرت فيها، اقتصرت على لون خاص؛ ولكن المجلات تعهدت بسد هذه الثلمة.

وشأن المقالة الصحفية في لبنان يختلف عنه في مصر ، فقد كان لبنان سبّاقاً الى التجديد ، في مختلف فنون الأدب ، بحكم ظروفه الاجتماعية وصلاته الثقافية المبكرة مع الغرب . ولقد اختصرت صحفه تلك المراحل العديدة التي تلكأت فيها الصحافة المصرية ، وكان لظهور الصحف الشعبية فيه ، في وقت مبكر، اثر كبير في ذلك. وكذلك كان لاضطلاع بعض الأجانب القائمين على

شئون الصحف الدينية، بعملية التحرير والتنسيق اثر في تهذيب الذوق الصحفي في لبنان ، بعاملي التقليد والتحدي . وكذلك كان للصحف العربية التي صدرت خارج لبنان كـ « عطارد » و «برجيس باريس» و «المشتري» في فرنسا أثر كبير في ذلك.

واول جريدة سياسية شعبية ظهرت في لبنان هي «حديقة الاخبار» (١٨٥٨) لخليل الخوري . وقد اعانه على تحريرها بعض ادباء العصر ومنهم أخوه سليم الخوري وسليم شحادة وسليم الشلفون وميخائيل المدور . وبعد هذه الصحيفة، ظهرت صحف يوسف الشلفون وهي « الشركة الشهرية » و «الزهرة» و « النجاح » و « التقدم » . ولم يخرج في اسلوبه الصحفي عن النهج الذي سار عليه محررو « حديقة الاخبار » .

هذه الصحف التي ذكرنا ، هي التي وضعت الأسس التي سارت عليها المدرسة الصحفية الاولى ، مدرسة القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين . وقد تبعتها صحف أخرى ، تولى تحريرها كبار كتّاب العصر امثال : بطرس البستاني وسليم البستاني وابراهيم سركيس والشيخ يوسف الأسير وانطون الجميل[١] والشيخ اسكندر العازار وعبد القادر القباني وسليم سركيس ونقولا نقاش ولويس صابونجي وأديب اسحق

---

(١) كان احد محرري البشير ، ثم انتقل الى مصر وانشأ مجلة « الزهور » وحرر في الاهرام ، حتى غدا رئيساً لتحريرها .

وسواهم من ادباء القرن الماضي في لبنان .

وتطورت الحركة الصحفية بعد اعلان الدستور العثماني وانتشار الحرية الفردية والشعور بالكرامة ، لتسهم في توطيد أسس هذا العهد الجديد ؛ فلمع من الكتّـاب بشارة الخوري في «البرق» وجرجي شاهين عطية في «المراقب» وفيلكس فارس في «لسان الاتحاد» وعبد الغني العريسي في «المفيد» و « صدى المفيد » و «لسان العرب» و «الفتى العربي» ، وكان اول كاتب صحفي درس اصول هذا الفن في اوربا . وكان اقوى المدافعين عن القضية العربية حجة وأجرأهم لساناً وامضاهم قلماً. كما ظهر طانيوس عبده الشاعر النـاثر في « الايام » و « الراوي » ، وقد خصصها للقصة . ومحمد الباقر في « البلاغ » وخليل زينية في « المرآة » .

وقد امتازت هذه الطبقة بازدياد حظها من الثقافة والحرية، ولذا تطورت المقالة الصحفية على يدها تطوراً كبيراً .

وقد فترت الحركة الصحفية اثنـاء فترة الحرب العظمى الاولى ، لتعود قوية نشطة بعدها. وكان للاحتلال الفرنسي أثر كبير في هذا النشاط ، اذ انه من ناحيةٍ حرص على نشر ثقافته ولغته بين الناس . ومن ناحية اخرى أخذ يرهق الناس بالضغط السياسي والتفرقة الطائفية واحتكار اقتصاديات البلاد، وتوجيه ابنائها وجهة خاصة ،تذلل له حكمهم والسيطرة عليهم . فكانت

هذه الثقافة التي بذل المستعمر جهوده في تعميمها بين الناس ، سلاحاً حاداً شهره الكتّاب في وجهه . وبذا خطت الصحافة اللبنانية خطوة كبيرة.ونشأت في هذا العهد طبقة من الكتّاب بين مؤازر ومحايد ومعارض ، اصطنعت الصحافة لتحقيق اهدافها وتجسيم مثلها،وكانت هذه الطبقة نواة للمدرسةالصحفية الحديثة في لبنان ، التي لمع من كتّابها جبران التويني وميشال زكور ومحيي الدين النصولي وعبدالله مشنوق ويوسف يزبك وميشال ابو شهلا وعمر فاخوري وسواهم .

١٠ — المجلات واثرها في تطور المقالة العربية الحديثة

كان للبنانيين ، وخاصة رجال المدرسة السورية المتمصرة ، أثر كبير في نشأة المجلة العربية وتطورها . فقد عرف لبنان المجلات في وقت مبكر من تاريخ نهضته ؛ فظهرت « الجنان » و « الزهرة » و «المهماز» و «النحلة» سنة ١٨٧٠ ، و «النجاح» سنة ١٨٧١ ، و « المقتطف » سنة ١٨٧٦ ، و « المشكاة » سنة ١٨٧٨ ، و «الجامعة» سنة ١٨٩٤ ، و « المشرق » سنة ١٨٩٨ ، وسواها من مجلات القرن الماضي . وقد كانت « الجنان » بحق رائد المجلات العربية قاطبة ، اذ انها وضعت الأسس التي سارت عليها تلك المجلات فيما بعد . فالمقتطف ، فيما يبدو لي ،

اقتبس خطتها ووسعها وتصرف فيها معتمداً على ذلك النبع الثر من ثقافة مُنشئيه .

وفي مصر كان للبنانيين أثر كبير في نشأة المجلات الثقافية والعلمية ، وتطويرها وتهذيب اسلوبها . فقد أنشأ فيها لويس الصابونجي « النحلة الحرة » (١٨٧١) ، وأنشأ خليل اليازجي «مرآة الشرق» (١٨٨٢)، وميخائيل جرجس عورا «الحضارة» (١٨٨٢) ، والدكتور شبلي الشميّل « الشفاء » (١٨٨٦) ، وشاهين مكاريوس «اللطائف» (١٨٨٦)، وانتقلت اليها المقتطف سنة ١٨٨٥، واصدر زيدان مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٢. وبعد ذلك أنشأ شاكر شقير « الكنانة » ، وأنشأ ابراهيم اليازجي « البيان » و « الضياء » . وقد اصدر عدد من الأدباء المصريين مجلات عدة كانوا ينهجون فيها نهج المدرسة السورية المتمصرة ، من حيث التنسيق والتحرير والكتابة .

والحقيقة ان المصريين لم يتنبهوا الى اثر المجلة وأهميتها في النهضة الادبية والاجتماعية ، إلا بعد الثورة المصرية ، التي انضجت بذور الوعي القومي في نفوس المصريين ، ولهذا رأينا اقبالاً كبيراً عليها في ذلك العهد . وقد امتازت المجلة آنذاك بالتخصص ، فأصبح لكل فن من الفنون ، ولكل فرع من فروع الصناعة مجلة خاصة، إلا ان هنالك بعض المجلات الادبية التي غنيت بالمقالة الادبية ومن أهمها « الزهراء » و « الجديد »

و « السياسة الاسبوعية » و « البلاغ الاسبوعي » و « الناقد » و « الرسالة » و « الفجر » و « المجلة الجديدة » و « ابولو » و « الشباب » و « الثقافة » و « الكاتب المصري » والكتاب

عرضنا في ما مضى لأثر الصحف اليومية في تطور المقالة الأدبية ونهضتها ، الا ان اثر المجلة كان اعظم شأناً . فالمجلة بطبيعة حجمها ، ومواعيد صدورها، تحتمل من الجد والاسهاب اكثر مما تحتمل الصحيفة اليومية . ثم ان غايتها تختلف عن غاية الصحيفة، فبينما نرى ان السياسة وما يتصل بها، هي الغاية الأولى للصحيفة ، نجد ان المجلة تعنى بالثقافة والأدب في المقام الاول .

ومن أهم المجلات التي لعبت دوراً خطيراً في نهضتنا الأدبية مجلة «المقتطف» ، التي وضعت أسس المنهج العلمي في الكتابة والتفكير ، في العالم العربي . وكانت في طورها الاول الذي ينتهي بوفاة الدكتور يعقوب صروف ، اكثر تعلقاً بالابحاث العلمية ، ثم حدث فيها التوازن بين العلم والأدب حين تولى تحريرها الاستاذ فؤاد صروف . وكذلك « الهلال » ، التي احتفظت بطابع البحث العلمي في التاريخ والأدب ، على عهد منشئها ، ثم مالت الى التنويع ، واجتذبت عدداً كبيراً من كتاب الشرق العربي ، بعد وفاته سنة ١٩١٤ .

اما المجلات الحديثة ، فقد نشأت نتيجة للصراع بين الاحزاب ، فعندما اصدرت «السياسة» ملحقها الأدبي «السياسة الاسبوعية» في ١٩ من آذار «مارس» سنة ١٩٢٦ ، تبعتها «البلاغ» وأصدرت «البلاغ الاسبوعي» في ٢٦ من تشرين الثاني «نوفمبر» من ذلك العام. وكان لهاتين المجلتين خدمات لا تنكر. فعلى صفحات «السياسة الاسبوعية» قرأنا اول دعوة للأدب القومي المصري ، وقرأنا مقالات طه حسين في الادب والنقد وصور البشري التي سماها «في المرآة» . وقرأنا مقالات محمد حسين هيكل النقدية والتاريخية والاجتماعية، وقرأنا لعدد كبير من كتّاب النهضة . وفي البلاغ الاسبوعي ، دخل العقاد طوراً جديداً من حياته الادبية بعد الطور الاول الذي قطعه في « البيان » و « الجريدة » . وقرأنا قصص السباعي ومقالاته الادبية .

ثم مالت المجلات الى التخصص ، فخرجت « الرسالة » سنة ١٩٣٣، واسهم في تحريرها طه حسين وأعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، الذين استقلوا سنة ١٩٣٩ بمجلتهم «الثقافة». وفي نهاية الحرب صدرت بعض المجلات الادبية الرصينة ، التي كادت تنسخ أثر الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال ، ومنها الكاتب المصري «١٩٤٥ ـ ١٩٤٨» التي تولى تحريرها الدكتور طه حسين ، والكتاب «١٩٤٥ ـ ١٩٥٣» التي اصدرتها دار المعارف وتولى تحريرها الاستاذ عادل الغضبان .

وفي لبنان ، عدا ما ذكرنا من مجلات القرن الماضي ، نجد ان المجلة الادبية تقفز قفزة هائلة بين الحربين ، ومن اهم المجلات التي ظهرت في هذا الطور : « المرأة الجديدة » «١٩٢١» ، و « منيرفا » « ١٩٢٣ » وهما نسائيتان ، و «الكشاف » و « المعرض » و « الجمهور » و « المكشوف »و « والأديب » وسواها . وقد كان لهذه المجلات اثر كبير في تطوير المقالة الادبية ، وكانت في اتجاهها العام أميل الى المقالة الادبية والنقدية ، منها الى المقالة الذاتية .

وفي سائر اقطار العالم العربي ، سارت الصحف والمجلات سيرتها في مصر ولبنان ، وقد كان هذان القطران ، وما يزالان عنوان النهضة الادبية الحديثة ، فلا عجب اذا رأينا هذه الاقطار تقلدهما في الصحافة والادب بوجه عام .

ونستطيع بعد هذا العرض التاريخي لحركة المجلات في لبنان ومصر ، ان نوجز اثر المجلة في تطور المقالة بما يلي :

١ ـ تطويع اللغة وتهذيب اسلوب الكتابة بحيث اصبح اداة مؤاتية لنقل الافكار الحديثة .

٢ ـ اتساع صفحاتها لنشر مختلف انواع المقالة من ذاتية وموضوعية .

٣ ـ خلق طبقة من الكتّاب الذين عنوا بفن المقالة وجعلوها الوسيلة الاولى لنقل افكارهم واذاعة آرائهم . وقد

برز من هؤلاء اعلام المدرسة الادبية الحديثة في مصر ولبنان.

١١ – أعلام المقاليين المحدثين

قلنا ان المجلات ربت طبقة من الكتّاب الذين جعلوا من المقالة وسيلتهم الاولى لنشر آرائهم واذاعة افكارهم على جمهور القراء. وقد اتضحت اساليب بعض هؤلاء الكتّاب واستبانت خصائصها ومميزاتها بطول الممارسة ومداومة المران. حتى اصبح لكل كاتب اسلوب خاص يُعرف به ويميزه عن غيره من الكتّاب والمنشئين. فعُرف **يعقوب صروف** بأسلوبه العلمي الرصين الذي كان يقصد به اذاعة الحقائق العلمية وتبسيطها حتى يسلس قيادها للجمهور. وهذا الاسلوب يمتاز بالدقة والوضوح والتحديد والاستقصاء والقصد الى الموضوع دون مداورة او مقدمات. وفيه حرص شديد على تنزيل المصطلح العلمي في مكانه اللائق الذي لا يبدو فيه قلقاً أو نابياً. والنشاؤه سهل اللفظ بسيط العبارة منيع التركيب، يخلو من الحشو والاستطراد والتخلخل. وقد ورث عنه هذه الخصائص تلميذه القائم على تراثه الاستاذ فؤاد صروف، الا انه اشد عناية بصقل الاسلوب وتهذيب العبارة وتوفير الصور البيانية القوية الموحية.

وامتاز **المنفلوطي** بأسلوبه الخطابي الذي كان تهذيباً لأساليب

امراء البيان في عصور العرب الزهرة ، بحيث تتلاءم مع حاجات الكتابة العصرية. وقد كاد المنفلوطي يفلت من التقيد بتراث السلف في الصور والقوالب، الا انه احتفظ ببعض لوازم هذا الاسلوب كالافراط في الترادف والتوازن ، والاسهاب في عرض الافكار وجلائها في ازياء مختلفة ، والتورط في السجع والاسراف فيه في غير مواضعه المستحبة ، في احيان كثيرة. وقد برع في تخير الالفاظ ومراعاة المشاكلة في رصفها وتنسيقها لكي تحجب ما في تفكيره وخياله من ضحالة وسطحية. ومال الى المبالغة في التلفيق والتصنع ، والغلو في ايراد الصفات المؤكدة التي تكسب الكلام قوة مفتعلة وعنفاً في غير موضعه. وقد اشار المازني الى ذلك في « الديوان » فقال عنه :

« فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك ، مما ليس ادلّ منه على الكذب والتزوير ، لما وقع في وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشدة ، لا يفيدهما ان يلقيه ساذجاً ويدعه غفلاً . واول ما يستوقف النظر فيه من هذا ، ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه انه من المحسنات اللازمة للصقل ، وان العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجري فيها النفَس الى آخره دون توقف واعتراض » (١)

---

(١) الديوان ج ٢ : ٢٢ - ٢٣ .

واسلوب البشري وسط بين الترسل والسجع ، يختار له الالفاظ المجلجلة ذات الجرس القوي والعبارات الضخمة الرنانة، لكي يستأثر بانتباه القارىء ويوهمه بأن الكتابة عمل ضخم رائع يحتاج الى ذخيرة من الاوابد، ومقدرة على معاناة التفصح الثقيل والتعالم المجوج. ولكن هذا الاسلوب يتفاوت بتفاوت الغرض، فهو حين يميل الى الفكاهة والمداعبة ، يلتزم تقصير الفواصل ، وايراد العبارات الرشيقة التي لا تعصف بما تحتاج اليه الفكاهة من سرعة وملح .

واسلوب طه حسين يجمع بين موضوعية العلم وذاتية الفن ، ففيه لذة للعقل والشعور والذوق معاً . وهو متأثر بالجاحظ في حرصه على تاوين العبارة وتنويع الصور والافكار بما ينفي الملل عن القارىء . وهو « لا يهجم عليك برأيه فيلقيه القاء الآمر ، وانما يلقاك صديقاً لطيفاً ، ثم يأخذ بيدك او بعقلك وشعورك ويدور معك مستقصياً المقدمات محللاً ناقداً ، يشركك معه في البحث حتى يسلمك الرأي ناضجاً ويلزمك به في حيطة واحتياط ، ثم يتركك ويقف غير بعيد متحدياً لك او ضاحكاً منك . وذلك في عبارات رقيقة عذبة او قوية جزلة فيها ترديد الجاحظ وتقسيمه . فإذا قصّ او وصف اخذ عليك اقطار الحوادث والاشياء ودخل الى اعماق الشعور وجوانب النفوس مدققاً متقصياً ، يخشى ان يفوته شيء ولا

يخشى الملال في شيء . دقيق الشعور ، صافي النفس ، نبيل الجدل حاده، يسير مع خصمه بعقله حتى اذا آنس منه الغضب او التولي تركه وانصرف » [١]

او هو كما قال الدكتور محمد مندور :

« اسلوب سمح تسلم الصفحة منه عند أول قراءة كل ما تملك ، فلا تشعر بالحاجة الى ان تعود تستوحيها جديداً ، ولكنك رغم ذلك تحمد للكاتب يسره . اسلوب واضح الموسيقى يكشف في سهولة عن اصالته » [٢]

وقد رد المازني ما في اسلوب طه حسين من ترادف الجمل وتقطيعها ومن تكرار وحشو الى تلك العاهة التي فرضت عليه ان يملي مقالاته املاء ، والى انه استاذ مدرس ، والاستاذ حريص دائماً على ان يبسط الموضوع لتلامذته لكي يتأكد من فهمهم له وادراكهم لجزئياته . قال :

« ولا شك ان اظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا ان علة ذلك ليست فقط انه يملي ولا يراجع ما يملي ، بل الامر يرجع في اعتقادنا الى سببين جوهريين : اولهما ان ما أصيب به في حياته من فقد بصره ، كان له تأثير لا نستطيع ان نقدر كل مداه ،

---

(١) احمد الشايب ـ الاسلوب ص ١٠٤ .

(٢) في الميزان الجديد ص ١٠ .

في الأسلوب الذي يتناول به موضوعاته ، وفي طريقة العبارة عن معانيه واغراضه . ولسنا نتحرج ان نذكر ذلك ، فانه اعرف بنا من ان يشك في عطفنا ، بل نحن اعلى به عيناً وأسمى تقديراً من ان نعتقد ان به حاجة الى هذا العطف . وليس يخفى ان المرء اذا حيل بينه وبين المرئيات ضعف أثرها في نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغني في احضار الصورة المقصودة الى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه الا الاسهاب ومحاولة الاحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

وثاني هذين السببين انه استاذ مدرس وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعوّد المشتغل بها التبسط في الايضاح ، والاطناب في الشرح والتكرير ايضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : وأعني انها تدفع المرء عن الاغوار والاعماق الى السطوح . وبعبارة اخرى تضطر المدرس ان يجتنب التعمق والغوص ، وان يكتفي ـ ما وسعه الاكتفاء ـ بما لا عسر في فهمه ولا عناء في تلقيه »[1] .

أما أحمد أمين ، فشأنه غير هذا الشأن ، اذ ان جانب العقل عنده يطغى على جانب العاطفة ، وهو يتلقى الحياة بعقله وتفكيره ولا يلتهمها بقلبه وشعوره ، وهو من اصحاب المعاني لا من اصحاب الالفاظ ، ولذا امتاز اسلوبه بالوضوح في

---

(١) قبض الريح : ص ٣٨ - ٣٩ .

التعبير ، والدقة في الوصف ، والايجاز في العرض ، على طريقة الكتّاب الذين يستمدون صورهم من واقع الحياة البسيطة التي يحيونها . وهو في حرصه على تصوير هذا الواقع لا يستنكف عن استعمال الالفاظ العامية والتعبيرات الاقليمية ، التي يظهر انه كان مفتوناً بها ، حتى انه افرد لها احد كتبه . وفي اسلوبه يقول الزيات :

« كان همه من الكتابة ان يقرر ويقنع ، لا ان يؤثر ويمتع ، ولعل منشأ ذلك فيه ان عقله كان أخصب من خياله ، وان علمه كان اكبر من فنه ، وان حبه للحرية والصراحة كان يحبب اليه ارسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معيّن ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشي خاص . ومع ذلك كان لاسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأه فلا تروعك منه الصور البيانية الاخاذة ولا الاصوات الموسيقية الخلابة ، وانما تروعك منه المعاني المبتكرة الطريفة والآراء الصريحة الجريئة والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه بازاء عالم يبحث لينتج، او مصلح يصف ليعالج، لا بازاء مصور يلون ليعجب او موسيقار يلحن ليطرب »[1] .

وقد وصفه طه حسين احسن وصف ، حين نقد الجزء الاول من « فيض الخاطر » فقال :

---

(١) احمد امين ـ بقلمه وقلم اصدقائه : ص ١٦ - ١٧ .

« ومع ذلك فهناك شيئان لا استطيع ان أختم هذا الفصل دون ان ألمّ بهما وأشير اليهما : فأما اولهما فهو ان الاستاذ احمد امين يسرف في حبه للمعاني واعراضه عن جمال اللفظ ، وغلوه في ان يكون قريباً سهلاً وسائغاً مألوفاً ومفهوماً من العـــامة وأوساط النـــاس ، حتى يضطره ذلك الى ان يصطنع بعض الاستعمالات العامية التي لا حاجة اليها، ولا تدعو النكتة الفنية الى استعمالها . وانما هو تعمد من الاستاذ وتكلف يفسد عليه الجمال الأدبي احياناً ، ويغري بعض نقاده ان يزعموا ان انشاءه ليس انشاءً أدبياً . وهو مع ذلك احسن ما يكون الانشاء الادبي لو لم يتطرف صاحبه ـ احياناً ـ بهلهلة نسجه ، متعمداً لذلك متكلفاً له مسرفاً فيه ...

هذا أحد الأمرين ، والأمر الآخر يتصل ببساطة الاستاذ التي أشرت اليها في اول هذا الفصل . فما اكثر ما يقف الاستاذ عند الاوليـات التي لا تخفى على احد فيبسطها بسطاً ويفصلها تفصيلاً ، ويطيل فيهـــا كأنه يعالج بعض المشكلات الغامضة »[1] .

وأسلوب الزيات يعتمد على الصنعة المحكمة والتكلف المرهق، وتوفير القيم اللفظية والتوازن الموسيقي، ولو أدى ذلك الى هدر

---

(١) فصول في الادب والنقد : ص ٢٠ ـ ٢١ .

المعنى والافتئات على الفكرة . فهو ضفيرة منسقة من الالفاظ الموسيقية المجلجلة ، او قطعة من الفسيفساء ابدعتها يد فنان صناع ، او هو قوالب جاهزة يلبسها لكل فكرة، ويلقيها على كل موضوع ، دون ان يحاول الخروج عن النسق المعتاد ، او السنّة المقررة ، ودون ان يعنى بتحوير القالب وتهذيبه بحيث يلائم الشكل المطلوب . وهو بهذه «اللفظية» المحكمة ، يتنكر للبلاغة ، ما دامت البلاغة ملاءمة الكلام لمقتضى الحال .

ولا نستطيع ان نتحدث عن المازني ، دون ان نلم بصديقه وعشير صباه العقاد ، على ما كان بينهما من تباين ، بل تناقض، في تناول الحياة والتعبير عنها ، كأنهما جوادان شُدّا الى عربة واحدة ، كل منهما يجرها في طريق معاكس للآخر . **فالعقاد** كاتب متجهم القلم ، ذو طبيعة جدية، يكتب كمن يحمل اعباء التاريخ على كاهله ، او كمن وكّل بعقول الناس يتناولها بالتشذيب والتهذيب . لا يعبث بموضوعه ولا يحيله الى مهرجان من السخرية والضحك ، يعيش في برجه العاجي ، ويرود آفاقاً سامية نبيلة ولا يتدنى الى العادي من مشكلات الحياة اليومية؛ وهو ان أراد ان يزيح عن كاهله نير الجدّ ، وان يطلق اساريره بالبشاشة والمرح، او اذا ألحت عليه نزعة التطرف الذي عرف عنه في مجالسه الخاصة وندواته الأدبية ، لجأ الى الشعر، فأحاله الى عبث عابر سبيل .

وعندما تجيل نظرك في مجموعات مقالاته، لا تقع عينك الا على كل رصين متزمت من الموضوعات . وعنوانات كتبه توحي بهذا العبوس الجادّ . على عكس المازني الذي تستطيع ان تلم بملامحه الفــارقة ، من اسماء كتبه ، كقبض الريح ، وخيوط العنكبوت ، وصندوق الدنيا ، وحصاد الهشيم ...

وهذا لا يعني ان المازني أقل حكمة وعقلاً من رفيق عمره وعشير صباه . بل ان نظرته الى الحيـاة ، في بعض الأمور ، أشد عمقاً واكثر اصالة . ولكنه مرح فكه ثرثار عابث، يرضيه ان يبث قارئه كل ما في قلبه ، اما العقاد فلا يتيح لأفكاره ان تستقبل القراء الا بعد ان يستن لها مقصّاً حادّاً قاسياً لا يرحم.

والمازني كلما حاول الجد ـ وهو قلما يحاول ذلك ـ خانته طبيعته فاستثقل مسوح الوعاظ ، وألقى عن كاهله طيلسان المفكر العابس ، او الاستاذ الجامعي المتزمت . فكأنه كان يكتب كتبه ، ونصب عينيه قولة مونتين المشهورة : « هذا الكتاب يقوم على موضوع بيتي خاص ، وقــد وقفته على اصدقائي حتى اذا ما افتقدوني ـ وهذا ما سيحدث سريعاً ـ وجدوا فيه بعض ملامح من احوالي وفكاهتي . وهكذا يتاح لهم ان يحتفظوا بمعلوماتهم عني على صورة أكمل وبطريقة اكثر حيوية » .

ولذا فهو يسعى ان يعرض على القارىء صورة نفسه، صادقة واضحة ، بما فطرت عليه من دمامة او جمال ، وبما امتازت

به من أساليب في التفكير والتأمل ، وما علق بها من غبـــار التجارب ، وما جنته من ثمار الحياة، حلوها ومرها ، ناضجها وفجّها . وكان اذا ما وضع قلمه على القرطاس ، انهالت عليـه الأفكار الطريفة، والصور المونقة ، واللفتات البارعة ، فتدفق في حديثه وتبسط ، وافرغ ما في نفسه دون تمويه او تصفية ؛ وكأنه يرى ان حياته الخاصة ملك للبشرية ، فلا يضن بها على الورق ، صدقها القارىء او لم يصدقها. وهو لا يعرض الموضوع بمقدماته ونتائجه، ليقدم اليك صورة واضحة عن عملية التفكير، بل يحيلك الى موضع الأسرار من نفسه، فيعرض عليك انبثاق التجارب فيها ونموها واكتمالها . وهو يرى ان كل شيء تقع عليه عينه يصلح لأن يكون موضوعاً للكتابة ، فهو يتقبل المنحة سواء كانت من يد عجوز شمطاء ، او من يد غـــادة لعوب . وعالمه هو عالم الأساطير والخرافات الشعبية ، تتنزى فيه أشباح الموتى واللصوص وقطاع الطرق وخفافيش الليل . في صميم قلبه حزن دفين يعبث به ويخفف وطـأته على نفسه بالسخرية والضحك، واحساس بضياع الحقيقة في مجتمعه ، فهو يدور من حولها ، ويحوم ولا يرد . يضحك من نفسه ومن قارئه ويجسّم عاهاته ونقائصه، ويتصرف تصرفات « دونكيشوتية »، ويجول في آفاق الحلم واليوتوبيا . وهو قادر على ان يفاجئك دائماً وان يأتيك من مأمنك ، بذهن متوقد وحيوية متدفقة ومرح يبعث

على الضحك المجلجل الصريح .

يبدأ مقالاته أحياناً ببعض الخواطر العابرة أو الأفكار التافهة ، ثم ينتقل الى الجد ، ولكن بطريقته الخاصة ؛ وهو يخدع القارىء عن نفسه ويوقعه في حبائله بسهولة ويسر ، حتى يظن انه امام عابث لاهٍ ، لا عمل له الا السخرية والضحك ، ولكنه في الحقيقة ، بعيد الغور عميق القرار . فهو حين يحدثك عن خصوصياته ، عن زوجه وابنته وابنائه وجدته العجوز ، يشعرك بأنه يجاذبك أطراف حديث سخيف ، لتزجية الفراغ وقتل الوقت ؛ فلا تنخدع بذلك ، انه يخفي عنك جوهر الحقيقة - حقيقة النفس المتألمة الحزينة التي ترى ان خير وسيلة لنسيان الألم ، هي مبادرته باللهو والعبث واللامبالاة . فمرحه مبطن بحزن دفين ، ومن هنا نلمس هذا التناقض الخفي في آرائه وصوره . فهذا المرح المولع بالفكاهة والنكتة يقشعر بدنه ويقف شعره عند ذكر الموت . وهذا الشاكّ الذي لا يؤمن بأي شيء ، يتعلق دوما بحبال الدين ، ويتدنى في ايمانه الى منزلة ايمان العجائز . ويرنو بعينيه الى المثل العليا ، ولكنه يرى في نفسه عجزاً عن بلوغها ، منبعه كسل رُكّب في طبيعته ، او شك في مقدرته وفضائله . وهو أثناء ذلك كله متمسك باثارة من الفكاهة التي تظهر على صور مختلفة ، وتتجلى في مواقع متباينة ، هي مرح سطحي هنا ، وعبث لاهٍ هناك ،

وسخرية لاذعة مرّة هنالك . وبهذا وحده كان المازني نسيج وحده في أدبنا بل هو ظاهرة لم تتكرر في أدبنا المعاصر ، وان تكررت مرتين في أدبنا ـ في الجاحظ والشدياق .

ويمتاز أسلوب مي بالتنوق في اختيار الالفاظ ذات الجرس المؤثر ، والعبارات الأنيقة الرشيقة ، والوضوح الذي ينفي كل لبس وابهام . وهو ينم عن عنـــاية فائقة بالصقل والتهذيب ، واحتفال شديد بتوازن العبارات في موسيقى عذبة هـادئة . وهي تحرص على تنسيق الجمل في وحدات مترادفة متساوقـة ، على ألا يؤدي ذلـــك الى الرتابة والاملال ، بـــل هي في كل موقف تفجؤك بنغم جديد ، يوقظ حواسك ويثير انفعالك ، ثم تتبعه وتستقصيه ، خافتة هنا ، صاخبة هناك كأنها تعزف قطعة موسيقية بعيدة الاغوار متباينة الجرس الا انهـــا منسقة الالحان ، منسجمة الانغام. ولعل لشغفها بالموسيقي وتدلهها بها الى حد العبادة ، وبراعتها في العزف على عدد من آلاتهـــا ، أثراً في خلق هذا الاسلوب الموقع المتماوج ، وفي تراوح نغماته بـين الغموض والوضوح ، والشدة واللين ، والقوة والضعف ، تبعاً لتغير الموضوعات واختلافها ، بين خاطرة شعرية ومقالة اجتماعية ودراسة أدبية .



القسم الثالث

فن المقالة



١ — تمهيد وتعريف

هناك نفر من الناس يجدون لذة فائقة في الحيـــاة عندما يخلون الى انفسهم ليفكروا في امر هذا العالم الذي يحيط بهم . وهم يجدون في هذه الحياة التي يحيونها متعة لا تعدلها متعة ، لا لأنها تتيح لهم ان يستغرقوا في اعمالهم ويعكفوا عليها بل لانها تهيىء لهم ساعات من الفراغ يقضونها في التأمل والتفكير .

ولا يجد رجل الاعمال متعته في اضطلاعه بعمله وتمرسه به، لانه لايعتبر هذا العمل هواية يمارسها ويشغف بها لذاتها،ولكنه يتخذ منه وسيلة لتحقيق هدفه الاول وهو الكسب المادي . اما رجل الفكر والتأمل فلا تعنيه مثل هذه الغايات في حـد ذاتها ، بـل يبحث عن التجارب الحيوية التي يغوص في لجتها ويستغرق فيها لانه يجد في التجربة ذاتها لذة ومتعة وترويحاً عن النفس . فاذا ما اجتاز مثل هذا الرجل مرحـــلة التأمل والاستيعاب،الى مرحلة التعبير ، فان وسيلته الاولى هي المقالة.

واذا ذهبنا نبحث عن تعريف جامع مانع للمقالة ، اعيانا البحث وضلت بنا سبله،شأننا في ذلك شأن هؤلاء النقاد الذين عجزوا عن ان يحيطوا هذا الفن الادبي بتعريف دقيق ، نظراً لتشعب اطرافـه واختلاطه بالفنون الاخرى على صورة من الصور . فالدكتور جونسون يعرف المقالة بأنها « نزوة عقلية لا

ينبغي ان يكون لها ضابط من نظام هي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كاتبها. وليس الانشاء المنغم – في نظره – من المقالة الادبية في شيء » . وهذا التعريف ان صدق على المقالة في طورها الاول ، فهو لا يصدق عليها اليوم، بعد ان تنوق كتّابها في إحكام نسجها واتقان تأليفها .

اما **موري** في قاموسه، فقد تنبه للتغيرات التي طرأت على المقالة الحديثة، فعرّفها بأنها « قطعة انشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين او حول جزء منه». ثم مضى قائلاً : « وكانت في الأصل تعني موضوعاً يحتاج الى مزيد تهذيب ، ولكنها أصبحت الآن تطلق على أية قطعة انشائية ، يختلف اسلوبها بين الايجاز والاسهاب ضمن مجالها الموضوعي المحدود ».

والذي نستبينه من هذا التعريف ، ان المقالة بمرور الأيام واختلاف الكتّاب أصبحت عملاً منظماً ، يتطلب مزيداً من إحكام الصنعة وضبط التصميم، الا انها مع هذا ، لا تبلغ مبلغ الكتاب او البحث الكامل .

وقد عرّف **ادموند جوس** المقالة في بحثه المنشور في دائرة المعارف البريطانية بقوله : « المقالة باعتبارها فنّاً من فنون الأدب ، هي قطعة انشائية ذات طول معتدل تُكتب نثراً ، وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة، ولا تعنى إلا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب » .

من هـــذه التعريفات المختلفة نخرج بتعريف يكاد يشملها جميعاً ، وهو ان المقـالة الأدبية قطعـة نثرية محدودة في الطول والموضوع ، تُكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق . وشرطها الأول ان تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب . وهـــذا التعريف ينطبق على المقالة بمعناها الفنّي الضيق ويحتفظ لها بصفتها التي أرادها لها مونتين حين سماها « محاولة » .

٢ - التمييز بين المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية

وحوالي نهاية القرن الماضي اصبحت المقالة مطية ذلولا لجميع الكتّاب ، يلجأون اليها لعرض تأملاتهم الذاتيـة او افكارهم الموضوعية ، دون ان يتقيدوا بالتقليد الذي وضعه مونتين اوباكون . وهكذا وَسِعت المقـــالة خواطر شارلس لام ومقطوعاته التي تتسم بميسم الغنائية الذاتية ، كما وسعت دراسات كارليل التاريخية ، ودراسات ماثيو ارنولد النقدية ، ومباحث الدوس هكسلي العلمية . وبهذا نضت عنها الثوب القديم ، اذ بدا مهلهلا ، وارتدت ثوبـاً قشيباً ، وغدت في عرف الأدباء والدارسين قطعة نثريـة تدور حول موضوع من الموضوعات ، ومن شأنها ان تروق القارىء وتستهويه ، لأن الكاتب بذل جهده في تجلية ذاك الموضوع في حلة انيقة ملائمة . ومن طبيعة

الفنون الادبية الا تنحصر في نطاق محدود صلب الاطراف ، بل هي كالأواني المستطرقة ، يعدو كل منها على اخيه ، ويفيد منه .وهكذا استغلت المقالة الفنون الأخرى فأخذت من السيرة والقصص رسم الشخصيات ومن المسرحية الحوار ومن القصيدة الغنائية النفس الشعري .

وتسهيلاً للبحث ، نلجأ الى تقسيم المقالة الحديثة الى نوعين هما : **المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية** . بيد انه ليس من السهولة بمكان وضع حدود فارقة بين هذين النوعين ، الا ان محك التمييز الصادق بينهما ، هو مقدار ما يبثه الكاتب في كل منهما من عناصر شخصية . ففي النوع الاول تبدو شخصية الكاتب جلية جذابة تستهوي القارىء وتستأثر بلبه، وعدته في ذلك الاسلوب الادبي الذي يشع بالعاطفة ويثير الانفعال ، ويستند الى ركائز قوية من الصور الخيالية والصنعة البيانية والعبارات الموسيقية والالفاظ القوية الجزلة. والمثل الواضح على ذلك مقالات لام في الادب الانكليزي ومقالات المازني في ادبنا. وفي النوع الثاني تستقطب عناية الكاتب ، ومن ثم القارىء ، حول موضوع معين، يتعهد الكاتب بتجليته، مستعيناً بالاسلوب العلمي الذي ييسر له ذلك. ومن خصائص هذا الاسلوب الوضوح والدقة والقصد وتسمية الاشياء بأسمائها . ولا يبيح الكاتب لشخصيته واحلامه وعواطفه ان تطغى على الموضوع . ومن

ذلك انه يضحي بحريته في عرض احاسيسه الخاصة ، في سبيل الحفاظ على حدود الموضوع ومنطقه الخاص وبنائه القائم على المقدمات والعرض والنتائج .

فالفروق الأساسية بين هذين النوعين اذاً ، هي ان المقالة الذاتية تعنى بابراز شخصية الكاتب، بينما تعنى المقالة الموضوعية بتجلية موضوعها، بسيطاً واضحاً خالياً من الشوائب التي قد تؤدي الى الغموض واللبس . والمقالة الذاتية حرة في اسلوبها وطريقة عرضها ، لا يضبطها ضابط ، بينما تحرص المقالة الموضوعية على التقيُّد بما يتطلبه الموضوع من منطق في العرض والجدل وتقديم المقدمات واستخراج النتائج .

ولكنهما اخيراً تنبعان من منبع واحد ، هو رغبة الكاتب الملحة في التعبير عن شيء ما . وقد يكون هذا الشيء تأملاته الشخصية في الحياة والناس ، فيكتب مقالة ذاتية. وقد يكون موضوعاً من الموضوعات ، فيعمد الى المقالة الموضوعية . وفي كلتا الحالتين يهتدي الكاتب الى الاسلوب المعبر الذي يعينه على تجلية غرضه .

٣ - المقالة الذاتية

تبين لنا مما سبق من حديث ، ان المقالة الذاتية هي التي احتفظت بالمعنى الادبي والتاريخي للاصطلاح ، اذ كانت المقالة

في اصلها ، كما ذكرنا آنفاً ، تكتب لتوفر قيماً أدبية خاصة ، اي ان كاتبها كان يصطنع النثر الفني وسيلة للتعبير عن احساسه بالحياة وتجربته فيها . وهي في هذا تقابل القصيدة الغنائية «لأن كلتيهما تغوص بالقارىء الى اعمق اعمـــاق نفس الكاتب او الشاعر ، وتتغلغل في ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون. فكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنـائية هو فرق في درجة الحرارة، تعلو وتتناغم فتكون قصيدة او تهبط وتتناثر فتكون مقالة أدبية »[1] . ولعلنـــا نقع على خير صورة لهذا النوع من المقـــالة عند مونتين ، اذ جعل (نفسه) المحور الذي تدور عليه جميعاً ، وانصرف الى التحدث الى قرائه ، عارضاً عليهم تأملاته ونظراته في الحياة والناس ، مقبلاً تارة مدبراً اخرى ، محباً هنا مبغضاً هنـــاك . وهو في كل ذلك لا يعنى بتهذيب افكاره ونظراته ، وتشذيبها ، فقد يسهب في موضع حين يجد مجال القول ذا سعة ، وقد يوجز في موضع آخر حين يكلّ قلمه او لا يلفي في نفسه رغبة في الاسهاب. بيد انه في كل ذلك ، كان ينظر الى شئون الحيـاة والأدب بمنظاره الخاص ، معرياً نفسه للقارىء ، نابشاً عن أعمق اعماقه ، بأسلوب ساذج رخو، هو اسلوب الحديث العاديّ الذي يمتاز بالبساطة واليسر والسلاسة والتنوع .

---

(١) زكي نجيب محمود : جنة العبيط ص ١٠ .

وقد لاحظنا من التعريفات السابقة ، ان من شروط المقالة الذاتية ان تكون على غير نسق من المنطق وان تسير رخاء دون تكلف للتنسيق او افتعال للترتيب ، ودون ان يتورط كاتبها في الاسراف في الوعظ والارشاد.وقد عبر احد المقاليين عن هذه المعاني جميعاً حين خاطب كتّاب المقالة عندنا بقوله :

« كلا ليس للمقالة الادبية ، ولا ينبغي ان يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم . فان كانت كذلك فلا عجب ان ينفر القارئون ـ ايها الأدباء ـ من قراءة ما تكتبون.لا تعجبوا يا قادة الادب المصري ألا يقرأكم إلا قلة من طبقة القارئين ، لأنكم تصرون على ان يقف الكاتب منكم ازاء قارئه موقف المعلم لا الزميل ، موقف الكاتب لا المحدث، موقف المؤدب لا الصديق، ويصطنع الوقار فلا يصل نفسه بنفسه. وإلا فحدثني بربك اي فرق يجده القارىء بين الصحيفة الادبية والكتاب المدرسي؟..»

ثم يقول :

« فكاتب المقالة الأدبية على أصح صورها، هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله،فيأخذها نقطة ابتداء ، ثم يسلم نفسه الى احلام يأخذ بعضها برقاب بعض ، دون ان يكون له أثر قوي في استدعائها عن عمد وتدبير ، حتى اذا ما تكاملت من هذه الخواطر المتقاطعة صورة ، عمد الكاتب الى اثباتها في رزانة لا تظهر فيها حدة العاطفة ، وفي رفق بالقارىء

حتى لا ينفر منه نفور الجواد الجموح. لأن واجب الأديب الحق ان يخدع القاريء كي يمعن في القراءة كأنما هو يسرّي عن نفسه المكروبة عناء اليوم او يزجي فراغه الثقيل ، وهو كلما قرأ تسلل الى نفسه ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفية وسخرية هادئة، دون شعور منه بأن الكاتب يعمد في كتابته الى النكتة والسخرية. فاذا بالقارىء آخر الأمر يضحك ، او يتأثر على اي صورة من الصور ، بهذه الصورة الخيالية التي أثبتها الكاتب في مقالته . وقد يعجب القارىء : كيف يمكن ان يكون في النفوس البشرية مثل هذه اللفتات واللمحات! ولكنه لن يلبث حتى يتبين ان هذا الذي عجب منه انما هو جزء من نفسه او نفوس اصدقائه ، فيضجره ان يكون على هذا النحو السخيف، فيكون هذا الضجر منه اولى خطوات الاصلاح المنشود »[1].

وهذا يعني ان تأملات الكاتب يجب ان تكون ممتعة في ذاتها فلا يحسن ان تكون وسيلة لغاية تختفي بين سطورها ، فتوجه المقالة توجيهاً وعظياً يضعف من قيمتها، بل يقضي عليها بالفناء العاجل ... وهي بهذا تختلف عن الابحاث والدراسات ، لأن هذه تفنى متعتها،عندما يستنزف القارىء ما فيها من معلومات او عندما تتغير بعض الحقائق التي اشتملت عليها ، بتقدم العلم،

---

(١) المرجع السابق ص ٧ - ٩ .

او اختلاف الاذواق . وليس هذا مصير المقالة بمعناها الأدبي الصحيح ، اذ انها ، في هذه الحالة ، لا تشتمل على قيم خارجة عن نطاقها الخاص ، اي انها تكون ممتعة في ذاتهـــا ، وبهذا وحده يُكتب لها الخلود ، لا بما تحتويه من المعلومات الموثوقة او التحليل العلمي الدقيق .

وكذلك لا تقوم المقالة على الجدل والنقاش ، لأن المجادل يسعى دوماً الى عرض الحقائق كما يراها من زاويته الخاصة، وكما ينسقها بمنطقه الخاص . وهو بهذا يدافع عن رأي ارتآه ، او مذهب اعتنقه . ولكن المقالة لا تعنى بشيء من ذلك، بل تعنى بالتعبير عن تجربة حيوية تمرّس بها الكاتب وتقلب على جمرها . ويُشترط في كاتب المقـــالة الذاتية ايضاً ألا ينظر الى الحياة نظرة جادة ، بل عليه ان يلمحها بعين ساخرة متسامحة تغضي على القذى وتستمريء العلقم. فلا يندفع في تيار المواعظ التي تصبح غاية في نفسها ، بحيث تمّحي معالم شخصية الكاتب فينحرف عن مهمتـــه الاولى وهي التعبير عن نفسه ، تعبيراً صادقاً ممتعاً .

٤ ـ ألوانها وأشهر كتّابها

ليس من اليسير تحديد الموضوعات التي يتاح لكتّاب المقالة الذاتية،ان يديروا حولها مقالاتهم. فهي متنوعة تنوع التجارب

الانسانية ، متباينة تباين شخصيات الكتّاب، فكل كاتب من الكتّاب ، صورة متميزة بألوانها وخطوطها . وقد تتقارب الالوان وتتلاقى الخطوط ، الا ان كل شخصية تحتفظ بطابعها الخاص وقسماتها الفارقة . وقد رأينا تسهيلاً للبحث ان نعرض أهم ألوان هذا النوع من المقالة، كما ظهرت على اقلام اشهر كتّابها :

١ ـ **الصورة الشخصية** : وهي خير ما يمثل هذا النوع اذ انها تعبير فني صادق عن تجارب الكاتب الخاصة والرواسب التي تتركها انعكاسات الحياة في نفسه . وهي في احسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصي الأليف ، والثرثرة والمسامرة، والاعتراف والبوح . ولكنها تمتاز الى جانب ذلك بروعة المفاجأة وتوقد الذكاء وتألق الفكاهة . ولا تخلو من السخرية الناعمة او الحادة، تبعاً لاتجاه الكاتب وألوان شخصيته . وقد حدد الدكتور زكي نجيب محمود شروط هذا النوع من المقالة واتجاه الكتّاب فيها بقوله :

« شروط المقالة الأدبية ان يكون الأديب ناقماً ، وان تكون النقمة خفيفة يشيع منها لون باهت من التفكه الجميل . فان التمست في مقالة الاديب نقمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وان افتقدت في مقالة الاديب هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة فلم تصبه ، فاعلم ان المقالة ليست من الادب الرفيع في كثير او قليل ، مهما تكن بارعة الاسلوب

رائعة الفكرة . وان شئت فاقرأ لرب المقالة الانكليزية « اديسون » ما كتب، فلن تجده الا مازجاً سخطه بفكاهته ، فكان ذلك أفعل أدوات الاصلاح .

« نريد من كاتب المقالة الأدبية ان يكون لقارئه محدثاً لا معلماً ، بحيث يجد القارئ نفسه الى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يعنفه . نريد من كاتب المقالة الأدبية ان يكون لقارئه زميلاً مخلصاً ، يحدثه عن تجاربه ووجهة نظره ، لا ان يقف منه موقف الواعظ فوق منبره ، يميل صلفاً وتيهاً بورعه وتقواه ، او موقف المؤدب يصطنع الوقار حين يصب في اذن سامعه الحكمة صباً ثقيلاً . نريد للقارئ ان يشعر وهو يقرأ المقالة الأدبية انه ضيف قد استقبله الكاتب في حديقته ليمتعه بحلو الحديث ، لا ان يحس كأنما الكاتب قد دفعه دفعاً عنيفاً الى مكتبته ليقرأ له فصلاً من كتاب » (١) .

وخير من يمثل هذا النوع من المقالات في الأدب الأوروبي: مونتين وشارلس لام وأولفر وندل هولمس . وقد كان لكل منهم طريقة خاصة ، غدت بين الكتاب عرفاً شائعاً، ونبراساً تعشو اليه ابصارهم .

فطريقة مونتين ومن اهتدى بهديه من الكتاب تقوم على

---

(١) المرجع المذكور آنفاً : ص ٥ - ٦ .

الوضوح والتألق ، وتعكس قسطاً كبيراً من الفكاهـة الحلوة والسخرية الناعمة . ويبدو لنا الكاتب من خلالها، رجلا اختبر الحياة وتمرس بآفاتها وتجرع كأس الشقاء حتى الثمالة ، وخرج من كل ذلك بابتسامة المدرك الواعي ، الذي اطلـع على صَغار الناس ، وعرف دواعيه ونتائجه ، فوقف منه موقف المشفق المتسامح . وقد أدرك أن طموح الانسان وآماله العريضة في الحياة، ان هي الا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا تاه لم يجده شيئاً ، فاحر به اذن ان يزوّر عن الحياة أو أن ينظر اليها بعين مستخفة ساخرة ويستمع الى اغرائها بأذن صماء. على ان طرح هذا التأمل ، لا يخلو من انبثاق بعض الحقاق التي تمثل أمام ناظريه وتحمله على ان يتدبرها،او يلقاها بالجد الصارم بادىء ذي بدء ، ثم يحدب عليها بعطفه ، أو يذرف عليهـا دمعة رثاء .

وهو رضي النفس دمث الخلق لا يشمخ بأنفه ، انفـــة وكبرياء ، ولا يتصرف تصرف الجلف الجافي الطبـاع ، بل يحتفظ باتزانه وهدوئه دوماً. ثم انـه يقف الى جانب الحق دائماً ، ويعليه على كل اعتبار ، بيد انه لا يندفع في ذلـك متحمساً طائشاً ، بل يكبح جمـاح أهوائه ، ويكفكف من غرب نزواته .

وأسلوبه بسيط رخيّ ، فهو لا يسهب مثرثراً ، ولا يبيح

لقلمه ان يجول على وجه القرطاس ويصول ، دون ما رادع او زاجر . وهو اخيراً رجل متحضر مثقف ، صقلت اخلاقه المدنية ، وهذبت ميوله اختباراته الواسعة في الحياة .

اما **شارلس لام** ورجال مدرسته ، فانهم يؤثرون المبالغة ويشقّون على انفسهم في التهويل ويسرفون في عواطفهم الى غير غاية . والكاتب من هؤلاء يمتاز بتأثره الشديد بالجمال، ويكون عبداً للحالات النفسية التي تنتابه ، فهو تارة حزين مسرف في الحزن ، وطوراً فرح تكاد تسمع قهقهاته من خلف القرطاس ، وحدود الحزن والفرح في نفسه مدثرة او مائعة ، فهو هوائي المزاج ، يضحك حتى تطفر من عينيه دمعة الرضا والبهجة ، ولكنها سرعان ما تنقلب الى دمعة حرّى سخينة ، هي دمعة الحزن العميق ، والألم العاصف . وهو لا يرمي بضحكه الى تهذيب ، ولا يستهدف به اصلاحاً ، بل يجد في البحث عن النكتة ، ويجعلها وكده ، حتى ولو اقام نفسه محوراً للتفكه والتندر .

وهو شارد اللب موزع الخاطر في بعض الاحيان قد يركب رأسه وتجمح به نزوات الغضب ، ولكنه يحتفظ دوماً بصفته الاساسية وهي الوداعة والتسامح وصفاء النفس . وهو يحب الأطفال ويحدب عليهم ، ويحترم السيدات ويقف لهن اجلالاً ويركع امامهن متعبداً . وله في اختيار أنواع الطعام وتمييز

الوان الشراب ذوق صادق لا يخطىء ، ولكنه اذا طولب بتعليل لهذا الاختيار او ببرهان على ايثار هذا اللون على ذاك، لجأ الى المداورة والتحيُّل، وتورط في بعض الأدلة المضحكة والآراء المستهجنة . وخبرته في الآثار والعاديات ، لا تقلّ عن خبرته في تمييز المآكل والمشارب ، فاذا ما دخل بيتاً من البيوت ، اخذ يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن خزانة الصيني ، ليجلو عينيه بمرأى قطعها النفيسة . فاذا افتقدها ، بحث عن الكتب القديمة والمخطوطات النادرة ، او حدّق في قطع الأثاث التاريخية والرياش النفيسة ، يتأملها تأمل الهاوي الخبير .

اما **اولفر وندل هولمس** ، فانه يتميز بالنوادر العملية التي تنضح بالذكاء وتشي بالمهارة وخفة اليد . وله عين لاقطة تلمح المفارقات المستغربة والصور العجيبة في الحياة . ولا يذهب به التطرف الى ان يجعل من مقالته معرضاً للّغو والهذر، بل يحرص شد الحرص على ان يوفر لكتابته الكثير من القيم الاجتماعية التي تمسّ المشكلات الاساسية في بيئته . ولا يُفهم من هذا انه كان يترخص في كتابته ، فقد كان الرجل واسع الاطلاع محيط الثقافة ، لا يعجزه ان يستغل علمه الغزير فيما يكتب ، وذلك لكي يبرز الأشياء المألوفة في حلة قشيبة من البداهة والذوق وحسن التعليل ، يبطنها بفكاهة خبيثة ذكية .

وقد كان لوراثته البيوريتانية اثر في اتجاهه الوعظي ، فقد

كان يلتزم الدفاع عن تقاليد بيئته الموروثة ، لانه كان يشعر بانه يعيش في عصر يميل اهله الى التحرر ، بل الى الاباحية في كثير من الاحيان . وكان يتجنب الالفاظ التافهة الخاوية التي لا تنطوي على مدلول اجتماعي قوي واضح . وكان لخبرته التي اجتناها من احتكاكه ببعض الشخصيات ، ومن تمرسه بمختلف ضروب النشاط الحيوي ، فضل في ما امتازت به مقالته من النظر الاجتماعي والتحليل الخلقي .

وهذه الاساليب جميعاً موجودة في أدبنا المقالي عند الكتّاب المشاهير ، أمثال محمد السباعي والمازني والعقاد واحمد امين ومي زيادة وميخائيل نعيمه .

٢ – **مقالة النقد الاجتماعي** : وقوامها نقد العادات الناخرة والتقاليد البالية التي ترسبت في المجتمع ، على مدى الدهور . ولا تعفي الازياء الطارئة والبدع المستحدثة من سخريتها وعبثها . ويعزى فضل ادخالها الى الادب الانكليزي الى اديسون وستيل كما ذكرنا سابقاً. والمبرر الطبيعي لذيوع مثل هذا النوع من المقالات ، في مجتمع ما ، هو ما يطرأ عليه من مستحدثات الحضارة في الازياء والعادات والاخلاق ووسائل اللهو والتسلية . او ما يحتدم فيه عادة من صراع بين القديم والجديد، في فترات الانتقال . يتمثل في اكثر الاحيان في ذلك التباين الذي نلمحه بين ما يتمسك به الآباء من تقاليد ، وبين ما ينزع اليه الابناء

من تجدد وتغيير . وعدة الكاتب في هذه المقالات ملاحظة دقيقة وقدرة على إحكام الوصف واجادة التحليل ، واتزان في الحكم وعمق في التأمل ، وبراعة في التهكم والسخرية ، حتى لا تخرج المقالة من بين يديه جثة هامدة ، لا تسمع لها نأمة ولا تبدو لها حركة ، فـــتزول قيمتها بزوال المؤثرات الطارئة التي دعت الى كتابتها .

وفي زمن اديسون وستيل كان (للموضة) اهمية خاصة ، اذ كان الانسان يدرك قيمة السيدة ويقدر منزلتها الاجتماعية عندما يلحظ طريقتها في اللبس ونوع الملابس التي ترتديها والحلي التي تتزين بها . ولذا كان لمقالات الازياء والعادات متعة خاصة عند قراء القرن الثامن عشر. وقد احتدم الصراع في مصر بين القديم والجديد في فترة ما بين الحربين، وتجلى هذا الصراع واضحاً في العادات والازياء ، وفي الادب بمختلف فنونه واساليبه. فلا عجب اذا رأينا اكثر كتاب المقالة عندنا، كأحمد امين والمازني وطه حسين والرافعي والعقـــاد ، يخوضون هذه المعركة في مختلف ميادينها ، فيتحيز احدهم للقديم، ويتصدى له الآخر ، يرد دعواه ويبطل آراءه ، وتمثلت هذه المعركة على صفحات الرسالة والثقافة في ميدان الادب . وخير ما يمثلها في الميدان الاجتماعي مقالة «سلطة الآباء» لاحمد امين . وهو يتحدث فيها أولاً عن ذلك الزمان الذي كان فيه الاب هو الآمر الناهي

في الاسرة ، والحاكم المطلق في جميع شئون أفرادها ، من دينية ودنيوية . ثم ينتقل الى الحديث عن هذا الزمان الذي صار فيه الابنـــاء آباء والمرؤوس رئيساً والرئيس مرؤوساً . وعرض لمشكلة لا بد من ان تحدث في كل اسرة ، وهي مشكلة زواج الفتى والفتاة ، وشرح المطالب الفادحة والشروط القاسية التي تتقدم بهـــا الزوجة ، بأسلوب ساخر فكه ، يبين مدى الفرق بين الزواج العصري ، والزواج القديم . ثم تحدث عن حياة هذه الاسرة الجديدة ، حين عمر بيتها البنون والبنات ، فقـــال :

وشاء الله ان يرزقا بنين وبنات .

وقد رأوا ان الأم لا تجل الابّ فلم يجلّوه ، ولم تعره كبير التفات فلم يعيروه ، ورأوها تبذر في مال الاب فبذروا ، ورأوها حرة التصرف فتحرروا ، ورأوها تخرج من البيت من غير اذن الاب فخرجوا خروجها ، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها ، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا ، ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا ، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة امام ابنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم ، وتحركت رغباتهم ، وجمحت تخيلاتهم .

وقال الابناء لأبيهم : إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان ، وقد نشأنا في زمن حرية في الآراء ، وحرية في الاعمال ، وحرية في التصرف ، لا كما نشأت في جو من الطاعة

والقيد والاسر والتقاليد، فمحال ان يسع ثوبك الضيق ابداننا، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا، فان حاولت ذلك فانما تحاول ادخال الثور في قارورة ، او لف القصر الكبير بمنديل صغير ! قال : نعم . قالوا : وانت الذي سمح لنا باديء ذي بدء ان نغشى دور السينما والتمثيل ، وان نسمع الأغاني البلدية ، ونشاهد المراقص الاوروبية ، فاذا اقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة . وانت الذي عودنا ألا نضع للبيت ميزانية، فانت تعطي « ماهيتك » لأمنا تنفق من غير حساب فان انتهت في نصف الشهر طلبت منك ان تقترض فاقترضت ، وان تشتري ما لا حاجة لنا به فاشتريت ، وان تقدم الكمالي على الضروري فأطعت ، فليس لك ان تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير والنهر الكبير ليس له ضابط . وخرق ان تحاول ان تضع ميزانية دقيقة لمصلحة وميزانية الدولة مبعثرة ! قال : نعم . قالوا: وقد اضعت سيادتك على امنا فلمَ تفرض سيادتك علينا؟ ورضيت بالخضوع لها فلمَ تأباه علينا ، وهي ام الحاضر وانت ابو الماضي ونحن رجال المستقبل ؟ قال : نعم . قالوا : وانت نشأت في زمن خضوع تام : خضعت لأبيك في المهد صبياً ، وخضعت للفقيه في المكتب ، وللمدرّس في المدرسة ، فاذا قلت برأسك هكذا ، قال الاستاذ بعصاه هكذا ، فنكست رأسك وغضضت بصرك . واسعفتك عينك بالبكاء، ولم يسعفك لسانك بالقول ؛ فلما صرت « موظفاً » وقفت من رئيسك

موقفك من ابيك واستاذك ، تنفذ دائماً وتطيع دائماً — ولم يجر على ذهنك يوماً تفكير في استغلال، ولا على لسانك نداء بحرية. اما نحن فحريتنا في بيتنا حررتنا على اساتذتنا، وناديتا بالحرية القومية فتبعتمونا في شيء من الرياء، تظهرون الطاعة لرؤسائكم وتبطنون الرضا عن حركاتنا ، وتريدون ان تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة . قال : نعم . قالوا : فلما قدناك وقدنا رجالنا في السياسة فلنقدكم جميعاً في كل شيء: في البيت وفي المال وفي العلم وفي رسم الخطط ، ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً والا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة .

وقالت البنات لأبيهن :

يا ابانا الذي ليس في السماء! رقصت امنا فرقصنا ، وشربت امنا فشربنا ، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان ان نشرب جهراً، ورأينا في روايات السينما والتمثيل حباً فاحببنا ، ورأينا عرياً على الشواطىء فتعرينا ، وتزوجت امنا باذن ابيها فلنتزوج نحن باذننا . قال : نعم . قلن : وقد اوصتنا امنا ان نركب الزوج ولكننا امام مشكلة يشغلنا حلها . فإنا نرى شبان اليوم متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك، فارادتهم قوية كارادتنا، وهم يحبون السلطة حبنا، فهم احرار ونحن احرار ، وهم مستبدون ونحن مستبدات ،

فكيف نتفق ؟ هل يمكن ان يبقى البيت بعدة استبدادات ؟ ولكن لا بأس يا أبانا ! هــــل البيت ضرورة من ضرورات الحياة ؟ اوَليس نظام الاسرة نظاماً عتيقاً من آثار القرون الوسطى ؟ قال : نعم . قلن : على كل حال فيصح ان يجرب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد ، فان وقع مــا خشينا عشنا احراراً وعاشوا احراراً، وطالبنا بتسهيل الطلاق وبهدم المحاكم الشرعية على رؤوس اصحابها ، وتعاقدنا تعاقداً مدنياً . قال الاب : وماذا تفعلن بما ترزقن من ابناء وبنات ؟ قلن : لك الله يا أبانا ! انك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا! لقد كنت انت وابوك وجدك تحملون انفسكم عناء كبيراً في التفكير في الاولاد ، وتضحون بأنفسكم واموالكم في سبيلهم ، وتعيشون لهم لا لكم . امــا عقليتنا اهل الجيل الحاضر فأن نعيش لانفسنا لا لغيرنا . لقـــد ضحك عليكم الدين والاخلاق ففهمتم ان الواجب كل شيء ، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شيء ، فنحن نمنع النسل ، فاذا جاء قسراً فليعش كماشاء القدر ، ولنقدم حظنا على حظه ، وسعادتنا على سعادته ، ولا نفكر فيه طويلاً ، ولا يتدخل في شئوننا كثيراً ولا قليلاً .

قال الاب : وأمر المال كيف يدبر ؟ كيف تعشن انتن واولادكن اذا كان طلاق وكان فراق ؟ قلن : هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك. دع هذا يا ابانا والبركة اخيراً فيك.

اما بعد فقد خلا الأب يوماً الى نفسه ، وأجـال النظر في يومه وأمسه ، فبكى على اطلال سلطته المنهارة ، وعزتـــه الزائلة ، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة ، وتعاليمهم الجديدة ـ قال : لقد قالوا ان زمان الاستبداد قـــد فات ومات ، فلا استبداد في الحكومة ولا استبـداد في المدرسة ، فيجب ألا يكون استبداد في البيت ، انما هناك ديمقراطية في كل شيء ، فيجب ان يكون البيت برلماناً صغيراً يسمع فيـه الأب رأي ابنه ورأي زوجه، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية في العمل وفي المال وفي كل شيء.وقالوا تنازل عن سلطتك طوعاً وإلا تنازلت عنها كرهاً ، وقالوا ان هذا اسعد للبيت،وابعث للراحة والطمأنينة . وقالوا ان هذا يخفف العبء عنك، فنحن نقسم البيت الى مناطق نفوذ ، فمنطقة نفوذ للمرأة ، وأخرى للرجل ، وثالثة للأولاد ، وكلهم يتعاونون في الرأي ويتبادلون المشورة . سمعت وأطعت فماذا رأيت ؟ رأيت كل انسان في البيت له منطقة نفوذ إلا شخصي ، ولم أرَ البيت برلماناً ، بل رأيته حماماً بلا ماء وسوقاً بلا نظام ، ان حصلت على مـال أرادته المرأة فستاناً ، وأرادته البنت بيـــانو ، واراده الابن سيارة ، ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام. وان اردنا راحة في الصيف اردت رأس البر لاستريح ، وأرادت الام والبنت الاسكندرية قريباً من ستانلي باي ، وأراد الابن

اوروبا ، الى ما لا يحصى ، ولا يمكن ان يستقصى . واخيراً يتفقـــون على كل شيء الا على رأيي . فوالله لو استقبلت من امري ما استدبرت ما تزوجت ، فان كان ولا بد ففلاحة صعيدية ، لم تسمع يوماً بمدنية ، ولم تركب يوماً قطـــاراً الى القاهرة والاسكندرية لها يد صناع في عمـــل « الاقراص » ورأس صناع في حمل « البلاص » .

ايتها الزوجة ! ويا ايهـــا الابناء والبنات ! ارحموا عزيز قوم ذلّ !

٣ ـ **المقالة الوصفية** : وتعتمد قيمتها الحقيقية على دقـة الملاحظة وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة الذي لا يحور الى عاطفية مسرفة . ثم على الوصف الرشيق المعبر الذي ينقـــل احاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه، بصدق واخلاص . والغاية الاولى في مثل هذه المقالات هي تصوير البيئة المكانية التي يعيش فيها الكاتب كما تتراءى لانسان عميق الاحساس حادّ البصر نافذ البصيرة . وهذا الامتزاج مع الطبيعة، والتعبير الانساني عنه، هو ما يميز مثل هذه المقالة، عن مقالات العلماء وأبحاثهم في عالمي النبات والحيوان. ولعل مما يفسد هذه المقالة، ويعصف بقيمتها الفنية، اتجاه الكاتب الى السفسطة والتفلسف والتحليل والتعليل. فالتصوير الساذج البسيط ، هو الخاصة الاولى للمقالة الفنية ، كما انه الخاصة الاولى للقصيدة

الغنائية . ومن خير امثلتها في أدبنا «وحي البحر » و « بجوار شجرة ورد » و « مع الطير » لأحمد امين [١] و « الصخور » لميخائيل نعيمه [٢] و « جمال الطبيعة » للعقاد [٣] و « الربيع» للرافعي [٤] .

٤ ــ **وصف الرحلات** : وقيمتها متأتية من انها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه ، والانطباعات التي تركها في نفسه ، ناسه وحيوانـه ومشاهده الطبيعية وآثاره . فهي بهذا مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة وبين اناس لم يكن لها بهم سابق عهد . والرحالة العابر الذي يكتفي بجسو الطائر لا يستطيع ان يقدم لنا صورة حية عن رحلته ، بوسعنا ان نألفها ونتعاطف معها ونعيد تجربته فيها بأنفسنا . بينما الرحالة المتبصر المتأمل ، يسحب صفاته العقلية والنفسية على تلك المشاهد التي تقع عليها عينه، ويجمع الملاحظات ويقارن بينها ويتناولها بالنخل والاصطفاء ، ويحاول ان يفهم المعاني الحقيقية التي تكمن وراء المرئيات التي تقع عليها عينه . فالرحلة

---

(١) فيض الخاطر ج ٢ : ١ ، وج ٣ : ٢٥٩ ، وج ٤ : ٦ على التوالي .

(٢) البيادر : ١٧٣ .

(٣) الفصول : ١٢٨ .

(٤) وحي القلم ج ١ : ٢٦٠

اذن في نظري ، ليست سوى تجربة انسانية حية يتمرس بهـا
ويجعل التعرف الى دقائقها واستكناه خفاياها وكده ، فيخرج
منها اكثر فهماً واصدق ملاحظة واغنى ثقافة وأعمق تأملاً .
وهي تتطلب منه عقلاً حساساً مرناً سريـع التأثر والتكيف
والاستجابة ، بوسعه ان يدرك معاني المرئيات وان يحللها الى
خصائصها الأساسية ويقدر قيمتها حق قدرها . وشر ما يعتري
هذه المقالة تدني الكاتب الى العاطفية المسرفة ، وتكلفه المواقف
التي وقفها غيره امـام المشاهد التي يستوعبها بصره وبصيرته .
فهنا التزييف والتصوير والتمويه . ثم ان كتب الجغرافيـا
وخرائط البلدان ، تستطيع ان تقدم للقارىء مادة علمية تتسم
بميسم الصدق والدقة ، الا ان هـذه الحقائق التي تعرضها على
القارىء هي الحقائق العلمية الجافة ، التي كثيراً ما تكون عرضة
للهدر والتجاوز اذا ما اتسع نطاق الاكتشافات او ازدادت
معرفة العلماء بحقائق هـــذا الكوكب الذي نعيش عليه .
والقارىء الذوّاقة لا يبحث عن شيء من ذلك ، بل يعنيه ان
يرى التفسير الذي تجود به شخصية انسانية ملهمة ، دقيقـــة
الاحساس بارعة التصوير لما تجول فيه عيناها من مشاهد المدن
والبلدان . وكلما كان الكاتب عميقـــاً في احساسه دقيقاً في
تصويره ، ازدادت متعة القارىء بما يقرأ ومحاولته اعـــادة
تشكيل التجربة التي مر بها الكاتب في نفسه . ويمثلها في ادبنا

« رحلة » لأحمد امين[1] و « رغيف وابريق ماء » و « غداً تنتهي الحرب » لميخائيل نعيمه[2] و « في الزورق » للعقاد[3].

٥ - **مقالة السيرة** : وهي صورة حيـة لانسان حيّ. تختلف عن الترجمة في النوع والدرجة الفنية. فكاتب التراجم يعنى بجمع المعلومات وتنسيقها وعرضها عرضاً علمياً واضحاً ، ولكنه يتوارى خلف موضوعه ، ولا يحاول ان يكشف الغطاء عن شخصيته في كثير أو قليل. اما كاتب السيرة المقالية ، فانه يصوّر لنا موقفاً انسانيـاً خاصاً من شخصية انسانية ، فيعكس لنا تأثره بها وانطباعاته الخاصة عنها ويحاول ان يخطط معالمهـا الانسانية تخطيطاً فنياً واضحاً ، معتمداً على التنسيق والاختيار ، بحيث تتراءى لنا الشخصية الموصوفة ، وكأنهـا حية متحركة تحدثنا ونصغي لها ، وتروقنـا بعض صفاتهـا فنعجب بها او تسوءنا فننفر منها. ومقالة السيرة بالنسبة الى السيرة الكبيرة ، كالاقصوصة بالنسبة الى القصة. الاولى تصور شريحة من الحيـاة او قطاعاً من الشخصية بلمسات سريعة موحية ، والثانية تعرض حياة متكاملة ، بريشة متأنية بطيئة تعنى بجزئيات الخطوط ، وتبرز مختلف الملامح والقسمات بألوان

---

(١) فيض الخاطر ج ٢ : ١٠٠ ، ج ٣ : ١٧٨ .

(٢) البيادر : ١٦٦ ، ١٩٥ .

(٣) الفصول : ٢٥١ .

قد تكون فائقة قوية هنا ، وباهتة ضعيفة هناك . ومن أمثلتها في أدبنا « شخصية عرفتها » و « الشيخ مصطفى عبد الرزاق » لأحمد امين[1] و « حافظ » للبشري[2] و « قاسم امين الفنان » للعقاد[3] و « طه حسين » و « العقاد والمازني » لتيمور[4] .

٦ ـ **المقالة التأملية**: وهي تعرض لمشكلات الحياة والكون والنفس الانسانية، وتحاول ان تدرسها درساً لا يتقيد بمنهج الفلسفة ونظامها المنطقي الخاص، بل تكتفي بوجهة نظر الكاتب وتفسيره الخاص للظواهر التي تحيط به . وخير ما يمثلها في أدبنا الاستاذ ميخائيل نعيمه الذي جعل وكده في مقالاته، الكشف عن روح الشرق وصوفيته العميقة، والتنبيه الى خصائصه الروحية والفكرية ، والتنويه بطاقاته والأخذ بضبع أبنائه حتى يبلغ بهم الى ميدانهم الأصيل الذي يناسب طبائعهم ويفتق مواهبهم. ومقالاته في «**البيادر**»[5] تعكس هذه المعاني جميعاً. وقد اشتهرت المدرسة المصرية في كتابة المقالة ، بتلوين المشكلات الاجتماعية تلويناً تأملياً ، لا يبلغ في عمقه مبلغ مقالات نعيمه ، وهذا

(١) فيض الخاطر ج ٥ : ٢٦٥ ، ج ٧ : ٣١٢ .

(٢) في المرآة : ١١٣ .

(٣) بين الكتب والناس : ٢٧٧ .

(٤) ملامح وغضون : ٥٤ ، ٩٩ .

(٥) راجع في هذا الشأن كتاب « كتب وشخصيات » للاستاذ سيد قطب ص ٢١٢ ـ ٢٢٤ .

واضح في مقالات احمد امين ومنهـــا : « فلسفة المصائب » و « نظرة في الكون » و « الحظ »[1] .

٥ ـ تحليل المقالة الذاتية

دراسة المقالة وتحليلها الى اجزائها، تجربة هامة وافرة النفع كبيرة الجدوى ، لانها تظهر لنا كيف يعمل عقل الكاتب ، حين يتمخض بالعمل الادبي . والغاية الاخيرة لهذه الدراسة هي تذوق العمل الادبي ثم تقدير حظه من البراعة والاتقان .
وبوسعنا ، تسهيلا للدراسة ، ان نقسم المقالة الى عنصرين اثنين، هما : المضمون والقالب. والقالب بدوره ينقسم الى قسمين هما : التصميم والاسلوب .

اول سؤال نلقيه على انفسنا بعد الفراغ من قراءة المقالة هو : ما الذي اراد الكاتب ان يقوله ؟ والجواب على هـــذا التساؤل اصعب مما يبدو لنا في الظاهر . لان كاتب المقالة ليس واعظاً ولا خطيباً ولا معلماً . وانما هو اديب يتأمل الحيـــاة ويصور انعكاساتها في نفسه واثر وقوعها على وجدانه . وعمل الدارس ان يكتشف طريقة الكاتب في تفسير المادة التي وقع عليها نظره واستوعبتها عين بصيرته ، ثم طريقته في عرض هذا

---

(١) فيض الخاطر ج ٢ : ١١٧ ، ج ٣ : ٣٦ و ج ٦ : ١٤١ .

التفسير ونشره على الناس . وعليه ان يستبين الخطوات المنطقية الخفية ، التي كانت سدى العمل الادبي ، وهي في اكثرها تقوم على المقارنة والمعارضة والتقسيم وتحليل العلاقات وملاحظة اوجه الشبه . اذ ليست المقالة الادبية رأياً جامعاً مانعاً ، وليست هي حكمة موجزة او مثلاً سائراً او جامعة من جوامع الكلم . وانما هي تجربة عقلية ووجدانية مرّ بها الكاتب وتمثل خطوطها والوانها وعبّر عنها بأسلوبه الخاص الذي يحمل طابع شخصيته . فهي بهذا تنضح بالذاتية ، وتمثل شخصية الكاتب اصدق تمثيل .

وليس من الطبيعي ان يتناسى الدارس الشق الثاني من البناء المقالي - وهو ناحيتها الشكلية التي تنهض على تكاتُفَي التصميم والاسلوب - اثناء تحليله للشق الاول . فالمضمون والصورة لا ينفصلان في العمل الادبي الذي يتمثل كما قال عبد القاهر الجرجاني في عملية النظم . ولكن تسهيلاً للدراسة ، كما اسلفنا ، لا بد لنا من ان نعالج كلاً منهما على حدة .

وقد عرّف والتر باتر تصميم المقالة ، في مقالته المعروفة عن الاسلوب بقوله :

«هو ذلك التصور البنائي للموضوع الذي يرهص بالنهاية منذ البداية ولا يرفع عينه عنها . وهو في اي جزء من الاجزاء ، يلتفت الى الاجزاء الاخرى ، الى ان تكشف العبارة الاخيرة عن كنه العبارة الاولى وتبرر وجودها دون ان تحسّ بأي

فتور »[1] .

واذا اتخذنا مقالة « **فن السرور** » لأحمد امين[2] مثلاً ، وحاولنا ان نكتشف التصميم الذي وضعه الكاتب في نفسه لها ، وجدنا أولاً تلك المقدمة التي يتحدث فيها عن هذه النعمة الكبرى التي منحها الله الانسان وعن مظاهرها في مشاهد الطبيعة وفي حياة الانسان ، ويقرر ان السرور لا يعتمد على الظروف الخارجية ، بل يعتمد على النفس وقدرتها على اجتلاب السرور ، فيقول :

« نعمة كبرى ان يمنح الانسان القدرة على السرور ، يستمتع به ان كانت اسبابه ، ويخلقها ان لم تكن . يعجبني القمر في تقلده هالة جميلة تشع فناً وسروراً وبهاء ونوراً . ويعجبني الرجل او المرأة ، يخلق حوله جواً مشبعاً بالغبطة والسرور ، ثم يتشربه فيشرق في محياه ويلمع في عينيه ، ويتألق في جبينه ويتدفق في وجهه .

يخطىء من يظن ان اسباب السرور كلها في الظروف الخارجية ، فيشترط ليُسرّ مالاً وبنين وصحة ؛ فالسرور يعتمد على النفس اكثر مما يعتمد على الظروف ، وفي الناس من

(1) A. R. W. Pater. « Style » (Theories of Style in Literature » . P. 399)

(٢) فيض الخاطر ج ٢ : ٢٠٠ .

يشقى في النعيم ، ومنهم من ينعم في الشقاء . وفي الناس من لا يستطيع ان يشتري ضحكة عميقة بكل مـــاله وهو كثير ، وفيهم من يستطيع ان يشتري ضحكات عـــالية عميقة واسعة بأتفه الاثمان ، وبلا ثمن . »

ونجد ثانياً ذلك العرض الموجز لأسباب قلة السرور فيمصر والشرق عامة ومحاولته تعليله ورده الى اسبابه النفسية في أمم الشرق ، ثم تلك المقارنة التي عقدهـــا بين امم الشرق وأمم الغرب من حيث تكوين النفسيات والظروف الخارجيـــة والداخلية التي تترك أثرها في ذلك .

وثالثاً : تلك الخاتمة التي بسط فيها الوسائل التي يستطيع بها الانسان ان يتغلب على مصاعبه، فيخلق هالة من السرور تحيط به ، وقد جعلها على صورة دروس ، يلقنها الانسان لكي يجعل من حياته سروراً دائماً ومرحاً مقيماً .

والأسلوب هو الشق الآخر من الصورة الفنية الظاهرة للمقالة. واذا لجأنا ثانية الى والتر باتر ، في مقالته تلك ، وجدناه يصف التصميم بأنه « العقل في الاسلوب » امـا الصورة الفنية للعمل الأدبي فهي على حد قوله « الروح في الاسلوب » . ويعني بهـا الطريقة التي يعمد اليها بعض الكتّاب في اصطناع اللغة واستغلال طاقاتها التعبيرية ، بحيث تستطيع ان تعبر عن تلك الروح التي ترفرف في نفوسهم ، قلقة حائرة تريد الانطلاق ـ تعبيراً كأنه

الوحي المنزل .

وقد عرّف الناقد و.س. برونل ، الاسلوب ، بانه « ذلك الركن من أركان العمل الادبي ، الذي يحتفظ في كل جزء من اجزائـه بروح الصورة العامة للأثر الأدبي بأجمعه . وهو روح دالة ، تنتظم العمل الانشائي ، وفكرة تتجلى في صور مختلفة . وهو يكشف عن العلاقات ، ويدلي بالآراء ، وينظم التنوع في الوحدة » . وهو يعني بذلك ان الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير مجتمعة .

اذاً ينبغي للدارس ان ينظر الى الاسلوب من ناحيتين، هما شخصية الكاتب ثم طريقته في التعبير عن هذه الشخصية . اما الناحية الاولى ، فانها تتطلب تمعناً ونفـاذ بصيرة ودقة في التحديد . وعلى الدارس حين يفرغ من قراءة المقالة، ان يحاول الاجابة على هذا السؤال : اي نوع من الناس هذا الذي قرأت مقالته ؟ ومن اليسير عليه ان يجيب على هذا السؤال ، اذا تمعن في دراسة مادة المقالة ، وتناولها بتؤدة وتأنٍّ .

وطريقة الكاتب في التعبير عن شخصيته تقودنا حتمـاً الى دراسة بلاغية ، تكشف لنا عن خصائص اسلوبه، وترشدنا الى اتجاهه في تناول المادة، واصطناع اللغة : مفرداتها وتراكيبها ، بيانها وبديعها ، للتعبير عن فكرته . ولعل من المفيد هنا ان نوجز ما قاله الكاتب المقالي العظيم ، روبرت لويس ستيفنسون،

عن هذا الموضوع في مقال له عن العناصر الفنية للأسلوب [1] ، لأنه يكشف لنا ، بطريقة غير مباشرة ، عن طريقته الخاصة في كتابة المقالات .

يذهب ستيفنسون في هذا المقال ، الى ان الاسلوب الادبي يقوم على العناصر التالية :

١ ـ اختيار الجمل وتنسيقها .
٢ ـ تركيب الجمل .
٣ ـ ايقاع العبارات .
٤ ـ مضمونها .

وهو يرى ان العنصر الاول ، هو أقل هذه العناصر شأناً، وأهم منه ، في نظره ، تركيب الجمل ، او نسجها على حـد تعبيره . لأنه يرى ان الغاية الاولى والاخيرة في كل فن من ...ون ، هي ابداع الصورة الفنية . ويرى ايضاً ان المهمة الحقيقية للكاتب ، هي تضفير معانيه وتنسيقها في نسيج محكم السرد ، بحيث تتوالى الجمل والعبارات في سلسلة واحـدة مستمرة ، ثم تأخذ في التكشف والانجلاء . فالاسلوب في نظره اذاً هو نسيج حسي منطقي في آن واحد .

---

(1) R. L. Stevenson. « On Some Technical Elements of Style in Literature»(Theories of Style in Literature P. P. 365 - 385) .

ومهما يكن من امر ، فان اسلوب المقالة لا يحتمل الصنعة والتشذيب والتهذيب ، لأن اتجاه الكاتب وحرصه على مثل هذا ، يخرج به عن حدود الطبيعة والالفة والمسامرة التي يجب ان تتسم بها المقالة، الى حدود الصنعة المرهقة والافتعال الممجوج.

٦ ـ نحو دراسة المقالة الذاتية

ولما كانت غايتنا في هـذا الكتاب ان نيسر على القارىء ، وعلى طالب الادب ، تفهم الادب المقالي بتحليله تحليلا يكشف عن عناصره الاولى وقسماته الفارقة ، رأينا ان نوجز له الآراء والافكار التي اسلفنا الحديث عنها ، على صورة واضحة جلية ، يسهل عليه فهمها واستيعابها .

تستهل اكثر المقالات الذاتية بفكرة عامة ، او بخاطرة من الخواطر ، يقيم عليها الكاتب بناء موضوعه، ثم يتتبعها بالشرح والتفسير والتعليق ـ كما رأينا في تحليلنا لمقالة « فن السرور » ـ وهذه الفكرة الموجزة المركزة هي نواة المقالة التي تستقطب من حولها .

وبعد ان يفرغ الكاتب من وضع هذه الفكرة وجلائها على وجه من الوجوه ، يتقدم الى شرحها وتوسيعها ، وذلك بأن يقدم بعض الامثلة الواقعية المحسوسة التي يستمدها من تجاربه في الحياة وتمرسه بها .

ولاستهلال المقالة اهمية خاصة في نظر الكاتب والقارىء ، اذ ان القارىء ـ وهو المقصود في كل عمل ادبي ـ لن يُقبل على قراءتها بلذة ونهم الا اذا طالعته بادىء ذي بدء بصورة جذابة مشوقة ، مجلوة بأسلوب طبيعي سلس ، هو اسلوب المسامرة والحديث العادي ، وبفكرة طريفة متألقة ، تسترعي عنايته وتجتذبه اليها بقوة واغراء .

ولتيسير الامر على الدارس ، نضع له فيما يـــلي بعض المقترحات والاسئلة ، التي تساعده على دراسة المقالة واستيعاب مادتها وتفهم اسلوبها :

١ ـ بعد ان تقرأ المقالة ، قراءة عميقة مستوعبة ، حاول ان تكتشف الفكرة الاساسية التي جعلها الكاتب محور مقالته . وحاول ان توجز هذه الفكرة في عبارة واحدة ، تستمدها من موضوعها ، او من الاقوال السائرة والامثال .

٢ ـ حاول ان تتبين الطريقة التي اصطنعها الكاتب في تتبع هذه الفكرة ومعالجتها وشرحها ، حتى نمت بين يديه واتسع مداها حتى شمل الحياة المحلية في بيئته او مجتمعه ، او الحياة الانسانية عامة. وتأمل طريقته في اقتباس الامثلة المحسوسة التي يستمدها من تجاربه الخاصة او من ثقافته العامة في الادب والتاريخ والاجتماع .

٣ ـ لاحظ مدى اعتماد الكاتب على اسلوب العرض ، ومدى

استعانته بأساليب الانشاء الاخرى كالقصص والجدل والحوار والوصف ، ثم تبين الفوائد الادبية التي جناها من كل ذلك .

٤ – تأمل موضوع المقالة ، واثر شخصية الكاتب ونفسيته واسلوبه في جعل ذلك الموضوع مقبولاً مشوقاً يحظى بموافقة القارىء ورضاه . وتبين ايضاً الى اي مدى استطاع الكاتب ان يكشف عن معالم شخصيته للقارىء ، وكيف تيسر له ذلك والى اي حد وفق فيه . وهل الموضوع لاذ ممتع في ذاته ام انه اكتسب ذلك من طريقة المؤلف في علاجه وعرضه .

٥ – حاول ان تحلل اسلوب الكاتب ، فتكشف عن خصائصه ، وتستجلي عيوبه . ثم حاول ان ترى مدى ملاءمته لطبيعة الموضوع ، ونفسية الكاتب . هل الاسلوب هو اهم ما لفت نظرك في المقال ، واية صفة من الصفات التالية تنطبق عليه : سهل – متدفق – متوازن – موسيقي – متماوج – رشيق – مصور – مباشر – جزل – [illegible] – واضح – شعري – مركز – فصيح – مصقول – [illegible] – مضطرب – دقيق – مهذب – سطحي – لفظي .

٦ – لاحظ الفقرات والجمل والالفاظ ، وهل هي قصيرة او طويلة . هل هي محكمة التركيب وثيقة النسج او مفككة متخلخلة ضعيفة البناء . وهل للكاتب اتجاه خاص في اختيار الالفاظ .

٧ ـ لا تتوانَ عن اللجوء الى المعاجم والموسوعات ، اذا اشكلت عليك فكرة من الفكر او عبـــارة من العبارات . فلمعاني الالفاظ وتركيبها ولدلالة الاشارات التاريخية والادبية والموسيقية ، وما الى ذلك ، اثر كبير في جـــلاء الموضوع والكشف عن اجزائه ، وفي توثيق عرى المحبة والالفة بين القارىء والكاتب .

٨ ـ اكثر من قراءة الادب وتأمل أساليبه . وعندما تقرأ المقالات خاصة حاول ان تتبين بنفسك خصائص هـــذا الفن الادبي . فان الدراسات النظرية لن تجديك نفعاً اذا لم تدعمها بقراءات واسعة في الفن الادبي نفسه . وحاول دائماً ان تكوّن لنفسك آراءك الشخصية وان تنمي شخصيتك الادبية بمـــا تقرأه وتتذوقه ، وذلك لكي تبلغ مرتبة التذوق المبني عـــلى التحليل والتعليل .

٧ ـ قيمة المقالة الذاتية

تعتمد قيمة المقالة الذاتية الى حد ما على قيمة الافكار التي يبثها الكاتب فيها . فاذا لم يكن لديه شيء قيم يقوله ـ كما هو شأن الرافعي والزيات مثلاً ـ فان مقالته سرعان ما تطوى في ثياب النسيان . الا ان الافكار ليست كل شيء في المقـالة . فالعمل الادبي لا يعتمد على صحتها من الناحية العقلية والعلمية ،

بقدر ما يعتمد على طريقة تجليتها وعرضها في حلة أدبية رائعة.
وتعتمد المقالة ايضاً ، الى حد كبير ، على اسلوبها ؛ فالبراعة الأدبية سبب قوي من اسباب المتعة التي يجدها القارىء في تذوق الأدب . ولعل جزءاً كبيراً من شهرة طه حسين الادبية قائم على أسلوبه الموسيقي العذب المتموج الذي تميز به بين الكتّاب .

ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، تعتمد في المقام الأول ، على مدى تجليتها للشخصية الانسانية التي تتوارى خلفها ، في خفر وحياء . فاذا قرأنا احدى مقالات مونتين ، فاننا لا نعجب بما احتوته من افكار ، ولا تروقنا الحلة اللفظية التي أبرزت فيها ، بقدر ما نعجب بشخصية الكاتب نفسه . فالناس في كل زمان ومكان، يؤخذون بالذكاء المتوقد والعقل المغامر الجريء، الذي يستطيع ان يزن اقدار الناس ويكشف عن انبعاثاتهم الاصيلة، وصغاراتهم وحقاراتهم ، ولكنه يتعالى عليها وينظر اليها على انها طبائع ركبت في جبلّة الانسان ، لا يستطيع عنها محيداً. وكذلك مقالات شارلس لام ، فان ذخيرتها من الافكار العميقة هزيلة، إلا ان شخصية الكاتب الأليفة العذبة، هي التي تستهوي القارىء وتملك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر وجاذبية وتألق، وذوق مصقول لا تفسده فظاظة،ولين لا يتدنى الى درجة الميوعة . وكذلك مقالات المازني ، لا

تستهوينا بما فيها من الافكار العميقة والآراء النيرة ، بل بما فيها من براعة في التصور ومقدرة على انتزاع الفكاهة من اكثر وجوه الحياة عبوساً وتجهماً .

٨ – المقالة الموضوعية

منذ اواخر القرن الماضي ، اخذ رجال الابحاث العلمية يستعينون بالصورة المعروفة للمقالة الأدبية ، لنشر آرائهم وإذاعة نظرياتهم . وقد ضعف شأن المقالة الادبية الصرف في مائة السنة الاخيرة ، واخذت المقالة الموضوعية تحل محلها ، وتعم بين الكتّاب بانتشار الصحف والمجلات المتخصصة ، حتى شملت جميع فروع العلوم الطبيعية والانسانية . ونرى في بعض الاحيان ، ان بعض الكتّاب يتقربون من منهج المقالة الذاتية ، وذلك بما يحاولونه من إبراز شخصياتهم وتأثراتهم الخاصة في الموضوع الذي يكتبون . إلا ان الغالب عليها ، هو منهج البحث العلمي وما يقتضيه من جمع المادة وترتيبها وتنسيقها ، وعرضها بأسلوب واضح جليّ ، لا يورط القارىء في اللبس ، ولا يقوده الى مجاهل التعمية والابهام . ولذا يعنى الكاتب بوضع تصميم دقيق وخطة محكمة لما يكتب ، حتى لا يضل قارئه السبيل . وقد حدد احد المؤلفين ، خطة المقالة الموضوعية بما يلي :

« واما خطة المقالة (Plan) فهي اسلوبها المعنوي من حيث تقسيمه وترتيبه ، لتكون قضاياه متواصلة ، بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها حتى تنتهي جميعاً الى الغاية المقصودة . وهذه الخطة تقوم على المقدمة ، والعرض والختام . فالمقدمة ـ تتألف من معارف مسلّم بها لدى القراء ، قصيرة متصلة بالموضوع معينة على فهمه بما تُعدّ النفس له ، وما تشير فيها من معارف تتصل به . والعرض ـ او صلب الموضوع ـ هو النقط الرئيسية او الطريقة التي يؤديها الكاتب ، سواء انتهت الى نتيجة واحدة ام الى عدة نتائج هي في الواقع متصلة معاً ، وخاضعة لفكرة رئيسية واحدة . ويكون العرض منطقياً مقدماً الأهم على المهم ، مؤيداً بالبراهين قصير القصص او الوصف او الاقتباس ، متجهاً الى الخاتمة لأنها مناره الذي يقصده . والخاتمة ـ هي ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت ، فلا بد ان تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض، واضحة صريحة ، ملخصة للعناصر الرئيسية المراد اثباتها ، حازمة تدل على اقتناع ويقين ، لا تحتاج الى شيء آخر لم يرد في المقالة »[1].

وهذا النوع من المقالة ، هو اللون الغالب على أدبنا المقالي

---

(١) احمد الشايب : الاسلوب ص ٧٤ .

اليوم ، بل على الأدب المقالي في العالم . وأهم ألوانه :

١ - **المقالة النقدية :** في حقول الأدب والفن ، ويرجع تاريخها في الأدب الاوروبي الى فترة مبكرة ، فنحن نجد جون دريدن يكتب مقالة طويلة عن الشعر المسرحي، سنة ١٦٦٨. ونرى كتّاباً أخر يتناولون بعض الموضوعات الادبية بالنقد والتحليل ، في القرن الثامن عشر . إلا أن هذا النوع من المقالة، بصورته الشائعة اليوم ، ثمرة من ثمرات ظهور المجلات الأدبية في اوروبا واميركا والشرق . وازدادت حصيلته بازدياد العناية بالموضوعات الادبية منذ النصف الثاني للقرن الماضي .

وتعتمد المقالة النقدية على قدرة الكاتب على تذوق الأثر الأدبي ، ثم تعليل الاحكام وتفسيرها وتقويم الأثر بوجه عام . ومن أشهر كتّابها عندنا : العقاد والمازني وأحمد أمين وطه حسين .

٢ - **المقالة الفلسفية :** وهي تعرض لشؤون الفلسفة بالتحليل والتفسير . ومهمة الكاتب هنا دقيقة صعبة ، اذ عليه ان ينقب عن الاسس الحقيقية للموضوع ، وان ينظر اليها نظرة انسانية، حتى لا تندثر قيمة مقالته بتقدم العقل الانساني وتجدد مكتشفاته النظرية . وعليه ان يعرض مادته بدقة ووضوح حتى لا يضل القارىء سبيله في شعاب هذا الموضوع الشائك . وقد اشتهر من كتّاب المقالات الفلسفية في ادبنا احمد لطفي السيد والدكتور

زكي نجيب محمود .

٣ ـ **المقالة التاريخية** : وتعتمد على جمع الروايات والاخبار والحقائق ، وتمحيصها وتنسيقها وتفسيرها وعرضها . وللكاتب ان يتجه في كتابتها اتجاهاً موضوعياً صرفــاً ، تتوارى فيه شخصيته ، وله ان يضفي عليها غلالة انسانية رقيقة، فيوشيها بالقصص ، ويربط بين حلقات الوقائع بخياله حتى تخرج منها سلسلة متصلة مستمرة .

٤ ـ **المقالة العلمية**: وفيها يعرض الكاتب نظرية من نظريات العلم او مشكلة من مشكلاته عرضاً موضوعياً بحتاً ، وهــذا شأن العلماء المتخصصين . او عرضاً موضوعيــاً يمتزج ببعض عناصر الذات ، وهذا شأن العلماء الذين يحاولون تبسيط العلوم واذاعتها بين عامة القراء . وممن برز في كتابة هذه المقالات في ادبنا الحديث الدكتور يعقوب صروف والدكتور فؤاد صروف والدكتور احمد زكي .

٥ ـ **مقالة العلوم الاجتماعية** : وهي تعرض لشؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع ، عرضاً موضوعياً،يعتمد على الاحصاءات والمقارنات ، وعلى التحليل والتعليــل ، والتنبؤ في بعض الاحيان .

والخطة في جميع هذه المقالات ، يجب ان تقوم على تصميم محكم وتنسيق دقيق ، كما ان اسلوبها يجب ان يكون واضحاً

دقيقاً خالياً من الحشو والاستطراد والالتفاف ، قوامه المصطلحات العلمية المتداولة بين ذوي الاختصاص .

***

وبعد ، فان التمييز بين انواع المقالات مهمة شاقة عسيرة ، ان ارتضيناه لأنفسنا تسهيلاً للبحث ،فان طبيعة هذا الفن الادبي لا تقره ولا توافق عليه . اذ ان بعض الكتّاب يجمعون في مقالاتهم بين طرفي الموضوع والذات ، ويمسكون الحبل من منتصفه، فتطغى الصفة الذاتية على بعض المقالات الموضوعية ، او تنعكس الآية فتطغى الصفة الموضوعية على بعض المقالات الذاتية . وهذا واضح في أدبنا المقالي الحديث ، فان كتّابنا اذا ما عرضوا لمشكلة من مشكلات السياسة او الاجتماع، لا بد من ان يضفوا عليها مسحة ذاتية صريحة وهذا ما نجده في اكثر مقالات العقاد والمازني واحمد امين وطه حسين . ولعل هذا هو شأن المقالة الاوروبية اليوم ، خارج دوائر الاختصاص الضيق المحدود . فبكتّاب الاختصاص ، هنا وهناك ، هم الذين يلتزمون الحدود الموضوعية لا يتعدونها، اما الكتّاب المحترفون الذين يجيلون اقلامهم في كل فن وعلم، فانهم يميلون الى التبسيط والتبسط ، والى تلوين المقالة بلون شخصي يبث فيها الحياة والاشراق ، على حساب موضوعية العلم ونظرياته .

المراجع والمصادر العربية

احمد امين — فيض الخـاطر : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

عبد العزيز البشري — في المرآة : مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ .

ابو حيان التوحيدي — الامتاع والمؤانسة (ج١) : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .

محمود تيمور — ملامح وغضون : المطبعة النموذجية ١٩٥٠ .

طه حسين — فصول في الادب والنقد : دار المعارف ١٩٤٥ .

مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم (ج١) . الطبعة الثانية : مطبعة الاستقامة ١٩٤١ .

احمد الشايب — الاسلوب . الطبعة الثانية : مطبعة الاعتماد ١٩٤٥ .

عباس محمود العقاد — بين الكتب والناس : مطبعة مصر ١٩٥٢ .
— فرنسيس باكـــون مجرب العـــلم والحياة : دار المعـارف ١٩٤٥ .
— الفصول : مطبعة السعادة ١٩٢٢ .

سيد قطب — كتب وشخصيات : مطبعة الرسالة ١٩٤٦ .

ابراهيم عبد القادر المازني — الديوان (ج ٢) : ١٩٢١ . (بالاشتراك مع العقاد)
— قبض الريح : المطبعة العصرية ١٩٢٧ .

زكي نجيب محمود — جنة العبيط او أدب المقالة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ .

المسعودي — مروج الذهب .

محمد مندور — في الميزان الجديد : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤ .

ميخائيل نعيمه — البيادر : دار المعارف ١٩٤٥ .
— احمد امين بقلمه وقلم اصدقائه : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ .
— الكتاب المقدس .

المصادر والمراجع الأجنبية

BRYAN, W. and CRANE, R. (editors) - The English Familiar Essay, Ginn and Company, New York.

COOPER, LANE (editor) - Theories of Style, The Macmillan Co. Ltd., New York 1912.

GOSSE, EDMUND - A History of Eighteenth-Century Literature, Macmillan and Co. Ltd., London 1930.

HASTINGS, W. (editor) - Contemporary Essays, Houghton Mifflin Co.,1928

HUDSON,W.H. - An Introduction to the Study of Literature, George Harrap and Co. Ltd., London 1945

KRAPP, GEORGE - The Rise of English Literary Prose, Oxford University Press, 1915.

LEE, ELIZABETH - Selected Essays From English Literature, Edward Arnold, London 1912.

McClelland, GEORGE and BAUGH, Albert (editors) Century Types of English Literature, The Century co.,New York 1925.

TAYLOR, WARNER (editor) - Representative English Essays, Harrap and Brothers 1923.

UPHAM, ALFRED - The French Influence in English Literature, The Columbia University Press, New York 1908.

WANN, LOUIS - Century Readings in the English Essay, The Century co., New York 1926

Encyclopaedia Britannica « Essay ».

فهرس الاعلام والكتب والصحف

أ

ت

ث

ج

ر

ز

١

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

فهرست

صفحة